المُغني في التَّفسير

المُحَرِّرُ الجامِعُ لِتفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

مُقْتَبَسَةً مِنْ مُوسُوعَةِ التَّفْسِيرِ المَأْثُورِ

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْنُ عَبْدِهِ

د/ آلَاء رِضَا

غَفَرَ اللَّهُ لَهُمَا وَلِوَالِدَيْهِمَا وَلِمَشَايِخِهِمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ

بسم الله الرحمن الرحيم

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحَرّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

سورةُ الأنْبياءِ

(المجلَّدُ السابعَ عَشَرَ)

" نُسْخَةٌ إِلِكْتِرُونِيَّةٌ، حُقُوقُهَا مَحْفُوظَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ "

نسخة
إلكترونية

تَفْسِيرُ
سُورَةِ الأَنْبِيَاءِ

سُورةُ الأنْبياءِ

سورةُ الأنْبياءِ

سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بسُورةِ (الأنبياءِ).[1]

(1) سُمِّيَت هذه السورةُ سورةَ الأنبياءِ؛ لاشتِمالِها على قَصَصِهم.

يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (317/1).

قال الطِّيبي: (هذه السورةُ مِن مفتتحِها واردةٌ في أمرِ النبوةِ وما يتَّصِلُ بها، ومِن ثَمَّ سُمِّيَتْ بسورةِ الأنبياءِ).

((حاشية الطيبي على الكشاف)) (307/10).

وقال ابن تيمية: (سورةُ «الأنبياءِ» سورةُ «الذِّكرِ»، وسورةُ الأنبياءِ الَّذين عليهم نزل الذِّكرُ، افْتَتَحها بقولِه: مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ الآيةَ [الأنبياء: 2] ، وقوله: فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ [الأنبياء: 7] ، وقوله: لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ [الأنبياء: 10] ، وقوله: هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي [الأنبياء: 24] ، وقوله: وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ [الأنبياء: 48] ، وقوله: وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ [الأنبياء: 50]، وقوله: وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ [الأنبياء: 105]).

((مجموع الفتاوى)) (265/15).

فعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضي اللهُ عنه، أنَّه قال: (سورةُ «بني إسرائيلَ» و«الكَهفِ» و«مَريمَ» و«طه» و«الأنبياءِ»: هُنَّ مِن العِتاقِ الأُوَلِ،[2] وهُنَّ مِن تِلادي[3]).[4]

فضائل السورة وخصائصها:

أنَّها مِن السُّوَرِ المتقدِّمِ نزولُها، ومِن قديمِ ما حفِظ الصَّحابةُ وتعلَّموه:

كما دلَّ عليه أثرُ عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضي اللهُ عنه المتقدِّمُ.

سُورةُ الأنبياءِ مَكِّيَّةٌ، ونَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفَسِّرينَ.[5]

من أهَمِّ مقاصِدِ السُّورة:

1- بَيانُ مَعالِمِ التَّوحيدِ، وإقامةُ الأدلةِ عليه، وما لقِي الأنبياءُ في سبيلِ الدعوةِ إليه.

---

(2) العِتاقُ: جمعُ عتيقٍ، وهو القديمُ، أو: هو كلُّ ما بلَغ الغايةَ في الجودةِ، والمرادُ بقولِه: (العِتَاق الأُوَل): السُّــوَر الَّتِي أُنْزِلت أوَّلًا بِمَكَّةَ، وأنَّها مِنْ أوَّلِ ما تَعلَّمه مِنَ القرآنِ.

يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (179/3)، ((فتح الباري)) لابن حجر (388/8).

(3) تِلادي: أي: مما حُفِظ قديمًا، والتِّلادُ: قديمُ المِلكِ.

يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (388/8).

(4) رواه البخاري (4739).

(5) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وابنُ الجوزي، والقرطبيُّ، وأبو حيان، ومجدُ الدين الفيروزابادي، والبِقَاعيُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (89/4)، ((تفسير ابن الجوزي)) (184/3)، ((تفسير القرطبي)) (266/11)، ((تفسير أبي حيان)) (406/7)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (317/1)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (285/2).

وقيل: السورةُ مكيةٌ، ويُستثنى منها: أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ ...

الآيَةَ [الأنبياء: 44]، فهي مدنيَّةٌ.

يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (61/1)، ((تفسير ابن عاشور)) (17/5).

2- إثباتُ المعادِ، وبيانُ الأدلَّةِ على وُقوعِه.

من أهمِّ الموضوعاتِ التي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

1- الإنذارُ بالبَعثِ، وتحقيقُ وُقوعِه.

2- ذِكرُ عَدَدٍ مِن الشُّبُهاتِ التي أثارها المُشرِكونَ حولَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ودَعوتِه، والرَّدُّ عليها.

3- تسليةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عمَّا قاله المُشرِكونَ في شأنِه.

4- التَّذكيرُ بما أصاب الأُمَمَ السَّالِفةَ مِن جرَّاءِ تَكذيبِهم رُسُلَهم.

5- إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وعلى شُمولِ قُدرتِه.

6- ذِكْرُ أخبارِ بَعضِ الأنبياءِ، ومنهم موسى وهارونُ، وإبراهيمُ ولُوطٌ، وإسحاقُ ويَعقوبُ، ونوحٌ، وأيُّوبُ، وداودُ، وسُلَيمانُ، وإسماعيلُ، وإدريسُ، ويُونُسُ، وزكريَّا -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ.

7- تعقيبُ أخبارِ الأنبياءِ بالمقصودِ الأساسيِّ مِن رِسالتِهم، وهو دَعوةُ النَّاسِ جميعًا إلى إخلاصِ العبادةِ لله.

8- ذِكرُ بَعضِ أشراطِ السَّاعةِ، وشَيءٍ من أهوالِها، وأحوالِ النَّاسِ فيها.

9- خُتِمَت السُّورةُ بالحَديثِ عن سُنَّةٍ مِن سُنَنِ اللهِ التي لا تتخَلَّفُ، وهي أنَّ العاقِبةَ للمُؤمِنينَ؛ والحديثِ عن رِسالةِ نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعن مَوقِفِه من أعدائِه.

سورةُ الأنْبياءِ

الآيات (1–5)

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (3) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (4) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (5)

غريب الكلمات:

مُحْدَثٍ: أي: مُجَدَّدٍ إنزالُه، والمُحدَثُ: ما أُوجِدَ بعدَ أنْ لم يكُنْ، وذلك إمَّا في ذاتِه، أو إحداثِه عندَ مَن حَصَلَ عندَه، وأصلُ (حدث): يدلُّ على كَونِ الشَّيءِ لم يكُنْ.

لَاهِيَةً: أي: غافِلةً وساهيةً، وأصل (لهو): يدُلُّ على شُغلٍ عن شَيءٍ.

النَّجْوَى: أي: السِّرارَ والمُناجاةَ، وأصلُ (نجو) هنا: يدلُّ على سَترٍ وإخفاءٍ.

أَضْغَاثُ: أي: أخلاطُ، وأضغاثُ الأحلامِ: هي ما لا تأويلَ له مِنَ الرُّؤيا، كأنَّه جماعاتٌ تُجمَعُ مِن الرُّؤيا كما يُجمَعُ الحَشيشُ، وأصلُ (ضغث): يدُلُّ على التباسِ الشَّيءِ بَعضِه ببَعضٍ.

تفسير الآيات:

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1).

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ.

أي: قَرُبَ[6] وقتُ حِسابِ النَّاسِ[7] يومَ القيامةِ على أعمالِهم التي عَمِلوها في دُنياهم.[8]

وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ.

---

(6) قال الواحدي: (معنى الاقترابِ هاهنا: قِصَرُ المدَّةِ التي بينَهم وبينَ الحسابِ).

((البسيط)) (7/15).

ذكر ابنُ عطية (٦/ ١٥١) أن قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنّاسِ حِسابُهُمْ﴾ عام في جميع الناس، وإن كان المشار إليه في ذلك الوقت: كُفار قريش، وأنّه يدل على ذلك ما بعده من الآيات.

(7) ممن اختار أنَّ المرادَ بالنَّاسِ: العمومُ: ابنُ جريرٍ، وابنُ جزي، وابنُ كثير، والبقاعي، والشوكاني، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (221/16)، ((تفسير ابن جزي)) (18/2)، ((تفسير ابن كثير)) (331/5)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (379/12)، ((تفسير الشوكاني)) (468/3).

((تفسير السعدي)) (ص: 518).

قال ابن عطية: (وقوله تعالى: اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ عامٌّ في جميعِ الناسِ، وإن كان المشارُ إليه في ذلك الوقتِ كفارَ قريشٍ، ويدلُّ على ذلك ما بعدُ مِن الآياتِ.

وقولُه: وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ يريدُ: الكفارَ).

((تفسير ابن عطية)) (73/4).

وقيل: المرادُ بالناسِ: كُفَّارُ مَكَّةَ.

وممن اختار هذا القولَ: الواحدي، وأبو حيان.

يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص 710)، ((تفسير أبي حيان)) (406/7).

وقيل: المرادُ بالناسِ: المشركونَ مطلقًا، دونَ المؤمنينَ.

يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (367/3).

((تفسير الشوكاني)) (468/3).

قال ابن عاشور: (والمرادُ بالنَّاسِ المشركونَ؛ لأنَّهم المقصودُ بهذا الكلامِ كما يَدُلُّ عليه ما بعدَه).

((تفسير ابن عاشور)) (10/17).

(8) قال السعدي: (وفي معنى قولِه: اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ قولان: أحدُهما: أنَّ هذه الأمَّةَ هي آخِرُ الأُمَمِ، ورسولُها آخِرُ الرسُلِ، وعلى أمَّتِه تقومُ الساعةُ، فقد قَرُبَ الحسابُ منها بالنسبةِ لِما قبلَها من الأمَمِ...

والقولُ الثاني: أنَّ المرادَ بقُربِ الحِسابِ: الموتُ، وأنَّ مَن مات قامَت قيامتُه، ودخَل في دارِ الجزاءِ على الأعمالِ).

((تفسير السعدي)) (ص: 518).

أي: والحالُ أنَّهم[9] في غفلةٍ في الدُّنيا عن اقترابِ حِسابِهم، وعمَّا يَفعَلُ اللهُ بهم في ذلك اليومِ، وقد أعرَضوا عن التفكُّرِ في الآخرةِ، وما ينتظِرُهم فيها مِن الحسابِ، ولم يستعِدُّوا لها بالأعمالِ الصَّالحةِ!

مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2).

أي: ما يأتيهم[10] مِن وَحيٍ من اللهِ حَديثِ النُّزولِ[11] -لِتَذكيرِهم ومَوعِظتِهم- إلَّا استمَعوه سَماعَ لَعِبٍ واستِهزاءٍ به، فلا يَعتَبِرونَ، ولا يتَّعظُونَ به.

---

(9) قال ابنُ عطيةَ: (قولُه: وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ يريدُ الكُفَّارَ، ويتَّجهُ من هذه الألفاظِ على العُصاةِ من المؤمنينَ قِسطُهم).
((تفسير ابن عطية)) (73/4).

(10) قال ابن كثير: (والخطابُ مع قُرَيشٍ ومَن شابَهَهم مِن الكفَّارِ).
((تفسير ابن كثير)) (332/5).

(11) قال ابن تيميَّة: (لَمَّا قالَ: مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ عُلِم أنَّ الذِّكْرَ منه مُحْدَثٌ ومنه ما ليسَ بمُحْدَثٍ؛ لأنَّ النَّكرةَ إذا وُصِفَتْ مُيِّز بها بينَ الموصوفِ وغيرِه، كما لو قالَ: ما يأتيني مِن رجلٍ مسلمٍ إلَّا أكرَمتُه، وما آكُلُ إلَّا طعامًا حلالًا ونحوَ ذلك، ويُعلَمُ أنَّ المحدَثَ في الآيةِ ليسَ هو المخلوقَ الَّذي يقولُه الجهميُّ، ولكنَّه الَّذي أُنزِل جديدًا، فإنَّ اللهَ كان يُنَزِّلُ القرآنَ شيئًا بعدَ شيءٍ، فالمنزَّلُ أوَّلًا هو قديمٌ بالنِّسبةِ إلى المنزَّلِ آخِرًا.
وكلُّ ما تقدَّم على غيرِه فهو قديمٌ في لُغةِ العربِ).
((مجموع الفتاوى)) (522/12).

قال ابنُ عطية (٦/ ١٥١ – ١٥٢) أنّ فرقة قالت: المراد بالذكر: أقوال النبي – ﷺ – في أمر الشريعة، ووعْظه، وتذكيره.
ووجَّهه بقوله: «فهو مُحْدَث على الحقيقة، وجعله ﴿من ربهم﴾ مِن حيث إنّ النبي – ﷺ – لا ينطق عن الهوى، ولا يقول إلا ما هو من عند الله».
وذكر أنّ فرقة أخرى قالت: الذِّكْر: الرسول نفسه.
وأنّها احتجَّت بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ [الطلاق: ١١].
ووجَّهه بقوله: «فهو مُحْدَثٌ على الحقيقة، ويكون قوله: ﴿اسْتَمَعُوهُ﴾ بمعنى: استمعوا إليه».

كما قال تعالى: أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ [النجم: 59 – 61].

لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (3).

لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ.

أي: غارِقةً قُلوبُهم في اللَّهوِ والغَفلةِ عن القرآنِ، مُتشاغِلةً بدُنياها وشَهَواتِها عن التأمُّلِ والتفَهُّمِ لِمَعانيه، فلا يتدَبَّرونَ حِكَمَه، ولا يتفكَّرونَ فيما أودَعَ اللهُ فيه مِن الحُجَجِ والبراهينِ.

وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ.

أي: وبالَغَ مُشرِكو قُرَيشٍ في إخفاءِ المناجاةِ[12] فيما بيْنهم، فقال بعضُهم لِبَعضٍ: هل هذا الذي يَزعُمُ أنَّه رَسولٌ من اللهِ إليكم إلَّا إنسانٌ مِثلُكم في صُوَرِكم وخَلْقِكم، واحتياجِه للطعامِ والشَّرابِ وغَيرِ ذلك؟!

---

(12) وممَّن ذهَب إلى أنَّ الإسرارَ هنا بمعنى الإخفاءِ: تاج القراء الكرماني، وابنُ عطية، والرسعني، وابنُ كثير، والشنقيطي.
يُنظر: ((غرائب التفسير)) للكرماني (733/2)، ((تفسير ابن عطية)) (74/4)، ((تفسير الرسعني)) (590/4)، ((تفسير ابن كثير)) (332/5)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (133/4).
قال الرسعني: (والصَّحيحُ عندي: ما هو المتبادِرُ إلى الأفهامِ.
فإن قيل: النَّجوى لا تكونُ إلَّا خُفيةً، فما معنى قولِه: وَأَسَرُّوا؟ قُلتُ: المبالغةُ في إخفاءِ ما تناجَوا به.
فإنْ قيلَ: ما الذي حمَلَهم على المبالغةِ في إخفائِه، وهم أشَدُّ شَكيمةً وأحدُّ شَوكةً؟ قلتُ: حمَلَهم عليه الخوفُ مِن نَقضِ ما أبرَموه من المكايِدِ لهَدمِ الإسلامِ، وإطفاءِ نورِ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، على تقديرِ اطِّلاعِه عليه، على ما أُلِفَ وعُرِفَ من شأنِ ذوي الشَّأنِ).

كما قال تعالى: وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا [الإسراء: 94].

أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ.

أي: أفتقبَلونَ مِن محمَّدٍ القُرآنَ، وتصَدِّقونَ به وتتَّبِعونَه، وأنتم تَعلَمونَ وتُدرِكونَ أنَّه سِحرٌ؟!

كما قال تعالى: نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا * انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا [الإسراء: 47، 48].

قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (4).

قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

أي: قال محمَّدٌ - ﷺ - للكفَّارِ الذين يكذِّبونَه: ربِّي يعلَمُ كلَّ قولٍ في السَّماءِ والأرضِ سِرًّا كان أو جهرًا، لا يخفَى عليه شيءٌ ممَّا يُقالُ فيهما، وهو الذي أنزَل هذا القُرآنَ المُشتَمِلَ على خبَرِ الأوَّلينَ والآخِرينَ، الذي لا يستطيعُ أحدٌ أن يأتيَ بمِثلِه إلَّا الذي يعلَمُ السرَّ في السَّمواتِ والأرضِ.

((تفسير الرسعني)) (590/4).

وقيل: الإسرارُ هنا بمعنى الإظهارِ، فهو مِن الأضدادِ.

وممن ذهب إلى ذلك: أبو عبيدةَ، وابنُ جريرٍ.

يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (34/2)، ((تفسير ابن جرير)) (223/16).

كما قال تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ [الفرقان: 4 – 6].

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1– قراءةُ: قَالَ على الخبَرِ، أي: أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أجاب الكُفَّارَ بهذا القَولِ.(13)

2– قراءةُ: قُلْ على الأمرِ، أي: أنَّ اللهَ أمرَ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُجيبَ الكُفَّارَ بهذا القَولِ.(14)

وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.

أي: واللهُ هو السَّميعُ لكلِّ قولٍ في السَّماءِ والأرضِ، العليمُ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بأحوالِنا وما في قُلوبنا، وبالصَّادِقِ والكاذِبِ منَّا.

بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (5).

---

(13) قرأ بها حفصٌ عن عاصمٍ، وحمزةُ، والكسائيُّ، وخَلفٌ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/323).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (2/163)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 465).

(14) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/293).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (2/163)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 465).

بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ.

أي: بل[15] قال الكافِرونَ: القرآنُ أشياءُ مُختَلِطةٌ رآها محمَّدٌ في منامِه ولا حقيقةَ لها، بل هو كَذِبٌ افتراه محمَّدٌ مِن قِبَلِ نفْسِه، بل محمَّدٌ شاعِرٌ جاءكم بشِعرٍ، وزعم أنَّه مِن عندِ ربّه!

فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ.

أي: قال الكافرونَ: فَلْيَأْتِنَا محمَّدٌ بمُعجِزةٍ حِسِّيَّةٍ تدُلُّ على صِدقِه، كما أيَّدَ اللهُ رُسُلَه السَّابقِينَ بالمُعجِزاتِ؛ كناقةِ صالحٍ، وعصا موسى، ومعجزاتِ عيسى، وغيرِ ذلك من المعجزاتِ التي لا يَقدِرُ عليها إلَّا اللهُ، ولا يأتي بها إلَّا الأنبياءُ والرُّسُلُ عليهم السَّلامُ.

---

(15) قيل: (بل) هنا للإضرابِ الانتقاليِّ وليس الإبطاليَّ؛ فمرةً يقولونَ كذا، ومرةً يقولونَ كذا، متحيرينَ لا يستقِرُّونَ على رأيٍ.
وممن قال بذلك: الواحدي، والقرطبي، والشنقيطي.
يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (3/230)، ((تفسير القرطبي)) (11/270)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (4/135).
وقيل: بل قال بعضُهم بكذا، وقال بعضهم بكذا، فكلُّ فريقٍ منهم يقولُ بشيءٍ من ذلك.
وممَّن قال بهذا المعنى: ابن جرير، وابن الجوزي.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/225)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/185).

سورةُ الأنْبياءِ

الآيات (6–10)

مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (6) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي
إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (7) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ
وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (8) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (9)
لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (10)

تفسير الآيات:

مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (6).

أي: ما آمن قَبلَ كفَّارِ قُرَيشٍ أهلُ القُرى مِن الأُمَمِ الماضيةِ الذين اقترَحوا على رسُلِهم الآياتِ ثمَّ كذَّبوا بها لَمَّا جاءتْهم، فأهلَكْنا تلك القُرى وجميعَ أهلِها، أفيُؤمِنُ كفَّارُ قُرَيشٍ إذا أتَتْهم مُعجِزةٌ ممَّا يَقترِحونَ؟!

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [يونس: 96، 97].

وقال سُبحانَه: وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآَيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ [الإسراء: 59].

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (7).

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ.

أي: وما أرسَلْنا قبلك -يا محمَّدُ- من الأنبياءِ لأُمَّةٍ مِن الأُمَمِ إلَّا رِجالًا مِن البَشَرِ مِثلَهم، لا مِن الملائكةِ، فنُوحي إليهم ما نريدُ، فلماذا أنكَروا إرسالَنا لك إليهم، وأنت رجلٌ كسائرِ الرسُلِ الذين أُرسِلوا قَبْلَك إلى أُمَمِهم؟!

كما قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى [يوسف: 109].

فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.

أي: فاسألوا أهلَ العِلمِ بالكُتُبِ المنزَّلةِ مِن قبْلُ إنْ كنتُم لا تعلمونَ أنَّ كلَّ الأنبياءِ مِنَ البَشَرِ؛ لِيُخبِروكم بما يَعلَمونَه مِن كَونِ جَميعِ الأنبياءِ بَشَرًا لا ملائكةً.(16)

وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (8).

وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ.

أي: وما جعَلْنا الأنبياءَ أجسادًا لا يأكُلونَ الطَّعامَ، بل كانوا بشرًا مِثلَك يأكلونَ الطَّعامَ.(17)

كما قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ [الفرقان: 20].

---

(16) اخْتُلِفَ في أهل الذكر؛ فقال قوم: هم أهل الكتاب.
وقال آخرون: هم أهل القرآن.
وعلّق ابنُ عطية (٦/ ١٥٤) بعد ذكره للقولين بقوله: «وهذا موضـــعٌ ينبغي أن يُتَأَمَّل، وذلك أن الذِّكْرَ هو كل ما يأتي من تذكير الله تعالى عبادَه؛ فأهل القرآن أهل ذكر، وهذا ما أراد علي بن أبي طالب».
وانتقد القول الثاني مستندًا إلى الدلالات العقلية، فقال: «وأما المحال على سؤالهم في هذه الآية فلا يَصِحُّ أن يكونوا أهل القرآن في ذلك الوقت؛ لأنهم كانوا خصـــومهم، وإنما أحيلوا على ســـؤال أحبار أهل الكتاب مِن حيث كانوا موافقين لهم على ترك الإيمان بمحمد – ﷺ –، فتجيء شهادتهم بأنّ الرسل قديمًا من البشر، لا مطعن فيها؛ لازمة لكفار قريش».
(17) ذكر ابنُ عطية (٦/ ١٥٥) أنّ معنى قوله: ﴿وما جعلناهم جســـدا﴾ على قولين: أحدهما: أنّ الجســـد يقع على ما لا يَتَغَذّى.
والآخر: أن الجسد يعم المتغذي وغير المتغذي.
ثم علّق بقوله: «فـ ﴿جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا﴾ على التأويل الأول منفي، وعلى الثاني مُوجب، والنفي واقع على صفته».

وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ.

أي: وما كان الأنبياءُ السَّابقونَ خالدينَ في الدُّنيا لا يموتونَ، بل كانوا بشرًا عاشُوا ثمَّ ماتوا، وإنَّما تميَّزوا عن النَّاس بما يأتيهم عن الله سُبحانَه مِن الوحيِ.

ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (9).

ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ.

أي: ثمَّ صدَقْنَا رسُلَنا ما وعَدْناهم من إهلاكِ أعدائِهم الكافرينَ المكَذِّبينَ، ونَصْرِهم عليهم، فأنجينا أولئك الرسُلَ وأتباعَهم الذين آمَنوا بهم مِن أممِهم.

كما قال تعالى: حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ [يوسف: 110].

وقال سُبحانَه: وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ [الصافات: 171–173].

وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ.

أي: وأهلَكْنا جميعَ الذين أسرَفوا على أنفُسِهم بالكُفرِ باللهِ، والإصرارِ على تكذيبِ رُسُلِ الله، فأبَدْناهم، ومحَوْنا ذِكْرَهم.

لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (10).

لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ.

أي: لقد أنزَلْنا إليكم قرآنًا فيه تذكيرٌ لكم بما فيه صلاحُكم، وفيه شَرَفُكم وعِزُّكم.[18]

كما قال تعالى: وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ [الزخرف: 44].

أَفَلَا تَعْقِلُونَ.

أي: أفلا تعقِلونَ أنَّ في القُرآنِ شَرَفَكم، وهدايتَكم إلى ما فيه صلاحُكم، فتُؤمِنوا به، وتتدبَّروه وتعمَلوا بما فيه؟

---

(18) اختُلِف في معنى قوله: ﴿فيه ذكركم﴾؛ فقال قوم: معناه: فيه حديثكم.

وقال آخرون: شرفكم.

ورجَّح ابنُ جرير (١٦/ ٢٣٢) مستندًا إلى ظاهر لفظ الآية القولَ الثاني الذي قاله ابن عباس، ومقاتل، والثوري، ويحيى بن سلّام، فقال: «وهذا القول الثاني أشبه بمعنى الكلمة ...

وذلك أنه شَرَفٌ لمن اتبعه وعمل بما فيه».

وعلَّق ابنُ عطية (٦/ ١٥٥) على القولين بقوله: «وقوله تعالى: ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ يحتمل أن يريد: فيه الذكر الذي أنزله الله تعالى إليكم بأمر دينكم وآخرتكم ونجاتكم من عذابه، فأضاف الذكر إليهم حيث هو في أمرهم، ويحتمل أن يريد: فيه شرفكم وذكركم آخر الدهر، كما تذكر عظام الأمور، وفي هذا تحريض».

سورةُ الأنْبياءِ

الآيات (11–18)

وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (11) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا
هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (12) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ
(13) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (14) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا
خَامِدِينَ (15) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ
لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (17) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ
زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (18)

غريب الكلمات:

قَصَمْنَا: أي: أهلَكْنا وكَسرْنا، وأصلُ القَصْمِ: الكَسرُ.

يَرْكُضُونَ: أي: يَفِرُّونَ، ويَهرُبونَ مُسرِعينَ، وأصلُ (ركض): يدُلُّ على تَحريكِ الرِّجلَينِ.

مَا أُتْرِفْتُمْ: أي: نُعِّمْتُم وبَقيتُم في المُلْكِ، وأصلُ (ترف): يدلُّ على توسُّعٍ في النِّعمةِ.

يَاوَيْلَنَا: الويلُ: الهلاكُ والعذابُ، ويُطلَقُ كذلك على حُلولِ الشرِّ، وقد يُستعمَلُ في التَّحسُّرِ. وقيلَ: الوَيلُ: وادٍ في جهَنَّمَ.

دَعْوَاهُمْ: أي: دُعاؤُهم، وقولُهم، وكلامُهم؛ فالدَّعوى تُطلَقُ على: الادِّعاءِ والدُّعاءِ والقَولِ كذلك، وأصلُ (دعو): أنْ يُميلَ الشَّخصُ الشَّيءَ إليه بصَوتٍ وكَلامٍ يكونُ منه.

حَصِيدًا خَامِدِينَ: أي: هالكينَ لم تبقَ منهم بقيَّةٌ، وأصلُ (حصد): يدُلُّ على قَطعِ الشَّيءِ، وأصلُ (خمد): يَدُلُّ على سُكونِ الحركةِ.

لَدُنَّا: أي: عندِنا، وقيل: (لَدُنْ) أخصُّ مِن (عند) وأبلغُ.

فَيَدْمَغُهُ: أي: يُذهِبُه، ويُبطِلُه، وأصلُ هذا إصابةُ الرأسِ والدِّماغِ بالضَّربِ، وهو مَقتَلٌ.

زَاهِقٌ: أي: زائلٌ، ذاهِبٌ، هَالِكٌ، وأصلُ (زهق): يدُلُّ على مُضِيٍّ.

تفسير الآيات:

وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (11).

وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً.

أي: وكثيرٌ مِن القُرى الماضيةِ أهلَكْناها وأهلَها المُشركِينَ؛ لكُفرِهم باللهِ، وتكذيبِهم رُسُلَه.

كما قال تعالى: وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ [الإسراء: 17].

وقال سُبحانَه: فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ [الحج: 45].

وقال عزَّ وجلَّ: وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا [الطلاق: 8، 9].

وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ.

أي: وأوجَدْنا بعدَ إهلاكِهم أُمَّةً أُخرى سِواهم.

فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (12).

أي: فلمَّا رأى هؤلاءِ الظَّالِمونَ عَذابَنا نازلًا بهم ووجَدوا مسَّه، إذا هم يَهرُبونَ مِن قَريتِهم مُسرعِينَ.

لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (13).

أي: لا تَرْكُضوا هاربينَ مِن العذابِ، وارجِعوا إلى النِّعَمِ التي كُنتم فيها وبُيوتِكم التي سَكَنْتُم فيها؛ لعلَّكم تُسألُونَ.[19]

قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (14).

أي: قال أولئك الكفَّارُ حينَ نزَل بهم العَذابُ مُعترِفينَ بذُنوبِهم نادِمينَ: يا وَيْلَنا! إنَّا كنَّا ظالمينَ لأنفُسِنا بكُفرِنا بالله، وتكذيبِنا رُسُلَه.

كما قال تعالى: وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ [الأعراف: 4، 5].

فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (15).

---

(19) ذكر ابنُ عطية (٦/ ١٥٦) أنّ قوله: ﴿لا تَرْكُضُوا ...﴾ يحتمل أن يكون مِن قول رجال بختنصر، ويكون المعنى أنهم خدعوهم واستهزؤوا بهم بأن قالوا للهاربين منهم: لا تفروا وارجعوا إلى مواضعكم لعلكم تسألون صلحًا أو جزية أو أمرًا يتفق عليه.

فلما انصرفوا أمر بختنصر بقتلهم.

وذكر أنه يحتمل أن يكون مِن كلام ملائكة العذاب، وأنّ الآيات وصْف قصة كل قرية، وأنه لم يرد تعيين حضورا ولا غيرها، ويكون المعنى: أنّ أهل هذه القرى كانوا باغترارهم يرون أنهم مِن الله تعالى بمكان، وأنّه لو جاءهم عذابٌ أو أمْرٌ لم ينزل بهم حتى يخاصموا أو يسألوا عن وجه تكذيبهم لنبيهم، فيحتجُّون هم عند ذلك بحجج تنفعهم في ظنهم، فلمّا نزل العذاب دون هذا الذي أملوه وركضوا فارين نادتهم الملائكة –على وجْه الهزء بهم–: لا تركضوا وارجعوا لعلكم تسألون كما كنتم تطمعون بسفه رأيكم، ثم يكون قوله: ﴿حصيدا﴾، أي: بالعذاب تُركوا كالحصيد.

أي: فما زال الكفَّارُ حينَ نزَل بهم العذابُ يُكرِّرونَ قولَهم: يا وَيلَنا إنَّا كُنَّا ظالِمينَ، حتى أهلَكْناهم واستَأصَلْناهم، فجَعَلْناهم موتَى كالزَّرعِ الذي استُؤصِلَ، قد خَمَدت منهم الحَرَكاتُ، وسَكَنَت منهم الأصواتُ كما تُخمَدُ النَّارُ فتُطفَأُ؛ فاحذَروا -أيُّها المُخاطَبونَ- أن تَستَمِرُّوا على تكذيبِ رَسولِكم فيَحِلَّ بكم مِثلُ ما حلَّ بأولئك القَومِ.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16).

أي: وما خلَقْنا السَّماءَ والأرضَ وما بينَهما مِن المخلوقاتِ عَبَثًا وباطِلًا، بل خلَقْناها ليتفَكَّرَ النَّاسُ فيها، فيَستَدِلُّوا بها على عَظيمِ صِفاتِ خالِقِها، واستِحقاقِه للعبادةِ، فيَعلَموا أنَّ الذي دَبَّرَها وخَلَقَها لا يُشبِهُه شَيءٌ، وأنَّه لا تكونُ الألوهيَّةُ إلَّا له، ولا تَصلُحُ العبادةُ لِشَيءٍ سِواه، وأنَّ القادِرَ على خَلقِها مع سَعَتِها وعِظَمِها قادِرٌ على إعادةِ الأجسادِ بعدَ مَوتِها؛ ليجازيَ المُحسِنَ بإحسانِه، والمُسيءَ بإساءتِه.

كما قال تعالى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ [ص: 27].

وقال سُبحانَه: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [الدخان: 38- 39].

وقال عزَّ وجلَّ: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ [آل عمران: 190، 191].

لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (17).

أي: لو أرَدْنا –على سَبيلِ الفَرضِ والتَّقديرِ المُحالِ– أن نتَّخِذَ زوجةً وولدًا،[20] لاتَّخَذْنا ذلك مِن عِندِنا، إنْ كُنَّا فاعلينَ ذلك، ولكِنْ لا يليقُ بنا فِعلُه ولا ينبغي.

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (18).

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ.

أي: ولكِنَّنا نُلقي بحُجَجِ القرآنِ على الباطِلِ، فيَذهَبُ ويَضمَحِلُّ، فلا نعمَلُ عَمَلًا يكونُ باطِلًا ولَعِبًا ولَهوًا.

---

(20) ذكر ابنُ كثير (٩/ ٣٩٥) أنّ تفسير اللهو بالمرأة والولد فيه تلازم، ثم قال: «وهو كقوله تعالى: ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه﴾ [الزمر: ٤]».

وذكر ابنُ تيمية (٤/ ٣٦٦) أنّ مَن فسروا اللهو بالولد والزوجة قالوا ذلك؛ لأنّ مِن المشركين مَن جعل لله ولدًا وصاحبة، وقالوا: إنه ضاهى الحق، وهم يسمون المرأة لهوًا، والولد لهوًا.

كما قال تعالى: إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ [سبأ: 48- 49].

وقال سُبحانه: أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ [الرعد: 17].

وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ.

أي: ولكم العَذابُ والهَلاكُ -أيُّها المُشرِكونَ- بسَبَبِ ما تكذِبونَ وتفترونَ.[21]

(21) قال ابن جرير: (ولكُمُ الوَيلُ مِن وَصفِكم ربَّكم بغيرِ صِفَتِه، وقيلِكم: إنَّه اتخَذَ زَوجةً وولَدًا، وفِريَتِكم عليه.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهلُ التأويل، إلَّا أنَّ بَعضَهم قال: معنى تَصِفُونَ: تَكذِبونَ.

وقال آخرون: معنى ذلك: تُشرِكون.

وذلك وإن اختَلَفت به الألفاظُ فمُتَّفِقةٌ معانيه؛ لأنَّ مَن وصف اللهَ تعالى بأنَّ له صاحبةً، فقد كذَبَ في وصفِه إيَّاه بذلك، وأشرَكَ به، ووصَفَه بغيرِ صِفَتِه.

غيرَ أنَّ أَولى العبارات أن يعبَّرَ بها عن معاني القرآنِ أقرَبُها إلى فَهمِ سامعيه).

((تفسير ابن جرير)) (241/16).

وقال البِقَاعي: (مِمَّا تَصِفُونَ أي: مِن وَصْفِكم لكُلِّ شَيءٍ بما تهوى أنفسُكم، من غيرِ إذنٍ مِنَّا لكم؛ لأنَّكم لا تَقِفونَ على حقائِقِ الأمور، فإن وصفتُم القرآنَ بشَيءٍ مِمَّا تقدَّمَ، ثمَّ قَذَفْنا عليه بما يبَيِّنُ بُطلانَه، بانَ لكلِّ عاقلٍ أنَّه يجِبُ عليكم أن تُنادِمُوا الويلَ بمَيلِكم كلَّ المَيلِ، وإنْ وَصفتُم اللهَ أو الدنيا أو غيرهما، فكذلك إنما أنتم متعَلِّقونَ بقُشورٍ وظواهِرَ لا يرضاها إلَّا بعيدٌ عن العقلِ، محَجوبٌ عن الإدراكِ).

((نظم الدرر)) (400/12).

اختُلِف في معنى قوله: ﴿مما تصفون﴾؛ فقال قوم: تشركون.

وقال غيرهم: تكذبون.

واختار ابنُ جرير (١٦/ ٢٤١) تقارب المعنى بينهما لدلالة العقل، فقال: «لأنّ مَن وصف الله بأن له صاحبة فقد كذب في وصْفِه إيّاه بذلك، وأشرك به، ووصفه بغير صفته».

وذكر أنّ المعنى: ولكم الويل من وصفكم ربكم بغير صفته، وقيلكم إنه اتخذ زوجة وولدًا، وفريتكم عليه.

وساق القولين ثم قال: «غير أن أولى العبارات أن يعبر بها عن معاني القرآن أقربها إلى فهم سامعيه».

وذكر ابنُ عطية (٦/ ١٥٧) قولًا بأنّ المراد بالويل: واد في جهنم، واختاره بقوله: «هو المراد في الآية».

ولم يذكر مستندًا.

سورةُ الأنْبياءِ

الآيات (19–23)

وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (19)
يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (20) أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (21) لَوْ
كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22) لَا يُسْأَلُ عَمَّا
يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (23)

غريب الكلمات:

وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ: أي: لا يَعْيَونَ، ولا يَنقَطِعونَ عن العِبادةِ، والحَسِيرُ: المنقَطِعُ إعياءً أو كَلالًا، وأصلُ (حسر): يدُلُّ على كَشفِ الشَّيءِ.

يَفْتُرُونَ: أي: يَضعُفونَ ويَسأَمونَ، والفُتورُ: سكونٌ بعدَ حِدَّةٍ، ولينٌ بعدَ شِدَّةٍ، وأصلُ (فتر): يدُلُّ على ضَعفٍ في الشَّيءِ.

يُنْشِرُونَ: أي: يُحيُونَ الموتى، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتَشعُّبِه.

تفسير الآيات:

وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (19).

وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أي: ولله وَحدَه مُلكُ مَن في السَّمواتِ والأرضِ مِن الخَلقِ، وكُلُّهم عَبيدٌ له.

وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ.

أي: ومَن عِندَه مِنَ الملائِكةِ لا يتكَبَّرونَ عن عبادتِه وطاعتِه والتذَلُّلِ له، ولا يتعَبونَ من عبادتِه، ولا يَنقَطِعونَ عنها.

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ [الأعراف: 206].

وقال سُبحانَه: لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ [التحريم: 6].

يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (20).

أي: يُسبِّحونَ اللهَ ليلًا ونهارًا، لا يَضعُفُ نَشاطُهم عن تَسبيحِه في كلِّ وَقتٍ.

أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (21).

أي: هل اتَّخذ أولئك المُشرِكونَ مَعبوداتٍ مِن الأرضِ يُحْيونَ الأمواتَ؟ كلا، لا يَقدِرونَ على ذلك، فكيف جَعَلوهم لله أندادًا، وعَبَدوهم معه؟!

كما قال تعالى: وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا [الفرقان: 3].

لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22).

لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا.

أي: لو كان في السَّمواتِ والأرضِ مَعبوداتٌ تَستَحِقُّ العبادةَ غيرُ اللهِ، لَخَرِبَتِ السَّمَواتُ والأرضُ، واختلَّ نظامُهما، وبطَل الانتفاعُ بما فيهما، وهلَك ما فيهما مِن الخَلقِ.

كما قال تعالى: مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ [المؤمنون: 91].

فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ.

أي: فتنزَّه اللهُ ربُّ العَرشِ وتعالى عمَّا يَصِفُه به الواصِفونَ مِن صِفاتِ النَّقصِ، ويَكذِبونَ عليه، كادِّعائِهم أنَّ له ولدًا وشَريكًا!

كما قال تعالى: سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ [الزخرف: 82].

لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (23).

أي: لا سائلَ يَسألُ الله تعالى عمَّا يفعلُ، فيقولُ له: لِمَ فعلْتَ؟ ولِمَ لَمْ تفعَلْ؟ ولا أحدَ يَقدِرُ أن يُمانِعَه أو يُعارِضَه سُبحانَه بقَولٍ أو بفِعلٍ فيما يشاءُ فِعلَه بخَلقِه، وأمَّا خَلقُه فيَسألُهم عن أفعالِهم وأقوالِهم.(22)

---

(22) قال ابنُ تيميَّةَ: (بيَّن سُبحانه أنَّه يفعَلُ ما يشاءُ فلا أحَدَ يُمكِنُه أن يُعارِضَه إذا شاء شيئًا، بل هو قادِرٌ على فِعلِ ما يشاءُ، بخلافِ المخلوقِ الذي يشاءُ أشياءَ كثيرةً ولا يُمكِنُه أن يفعَلَها؛ ولهذا قال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم في الحديثِ الصحيحِ: «لا يقولَنَّ أحدُكم: اللهُمَّ اغفِرْ لي إنْ شِئتَ، اللهمَّ ارحَمْني إنْ شئتَ؛ فإنَّ الله لا مُكرِهَ له، ولكِنْ لِيَعزِمِ المسألةَ» [البخاري «6339»، ومسلم «2679»]).

((مجموع الفتاوى)) (225/13).

وقال ابنُ القيِّمِ: (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ؛ لكَمالِ حِكمَتِه وعِلْمِه، ووَضْعِه الأشياءَ مواضِعَها، وأنَّه ليس في أفعالِه خَلَلٌ ولا عَبَثٌ ولا فَسادٌ يُسألُ عنه كما يُسألُ المخلوقُ، وهو الفَعَّالُ لِما يريدُ، ولكِنْ لا يُريدُ أن يفعَلَ إلَّا ما هو خَيرٌ ومَصلحةٌ، ورَحمةٌ وحِكمةٌ، فلا يَفعَلُ الشَّرَّ ولا الفسادَ ولا الجورَ، ولا خِلافَ مُقتضى حِكمَتِه؛ لكَمالِ أسمائِه وصِفاتِه).

((طريق الهجرتين)) (ص: 414).

قال الواحدي: (قال المفسِّرون: إنَّ الله تعالى لا يُسألُ عمَّا يَحكُمُ في عبادِه مِن إعزازٍ وإذلالٍ، وهُدًى وضَلالٍ، وإسعادٍ وإشقاءٍ؛ لأنَّه الرَّبُّ مالِكُ الأعيانِ، والخَلقُ يُسألونَ سُؤالَ توبيخٍ؛ يقال لهم يومَ القيامةِ: لِمَ فَعلتُم كذا وكذا؛ لأنَّهم العبيدُ، وواجِبٌ عليهم امتِثالُ أمرِ مَولاهم، واللهُ تعالى ليس فوقَه أحدٌ يقولُ له لِشَيءٍ فَعَله: لِمَ فعَلْتَه؟!).

((البسيط)) (50/15).

كما قال تعالى: إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ [هود: 107].

وقال سُبحانَه: وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ [الرعد: 41].

وقال عزَّ وجلَّ: فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ [الحجر: 92، 93].

سورةُ الأنْبياءِ

الآيات (24–29)

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (24) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا
إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (26) لَا
يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (27) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا
لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (28) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ
جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (29)

غريب الكلمات:

مُشْفِقُونَ: أي: خائِفونَ حَذِرونَ، وأصلُ (شفق): يدُلُّ على رِقَّةٍ في الشَّيءِ.

تفسير الآيات:

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (24).

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً.

أي: أم اتَّخَذ هؤلاء المُشرِكونَ مِن دونِ اللهِ مَعبوداتٍ يَزعُمونَ أنَّها تنفَعُ وتضُرُّ وتخلُقُ وتُحيي وتُميتُ؟

قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ.

أي: قُلْ -يا مُحَمَّدُ- لهم: هاتوا دليلَكم على صِحَّةِ ما تَزعُمونَ أنَّ مع اللهِ آلِهةً أُخرى.

هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي.

أي: هذا القُرآنُ الذي أُنزِلَ علَيَّ، وهذه كتُبُ الأنبياءِ المتقَدِّمةُ -كالتَّوراةِ، والإنجيلِ- على خِلافِ ما تَزعُمونَ، فهل وجدْتُم في شَيءٍ منها اتخاذَ آلِهةٍ مع اللهِ؟! أم كُلُّها ناطِقةٌ بالتَّوحيدِ آمِرةٌ به؟[23]

كما قال تعالى: وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ [البينة: 5].

---

(23) ذكر ابنُ عطية (٦/ ١٦٠) أنّ قوله تعالى: ﴿هذا ذِكْرُ مَن مَعِيَ وذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ يحتمل أمرين: أحدهما: أن يريد بـ ﴿هذا﴾: جميع الكتب المنزلة قديمها وحديثها، أي: ليس فيها برهان على اتخاذ آلهة من دون الله، بل فيها ضد ذلك.

والآخر: أن يريد بقوله: ﴿هذا﴾: القرآن، والمعنى: فيه ذكْر الأولين والآخرين، فذكر الآخرين بالدعوة، وبيان الشـرع لهم، وردهم على طريق النجاة، وذكر الأولين بقص أخبارهم، وذكر الغيوب في أمورهم، ثم قال: «ومعنى الكلام -على هذا التأويل- عرض القرآن في معرض البرهان أي: هاتوا برهانكم، فهذا برهاني أنا ظاهر في ذكر من معي، وذكر من قبلي».

بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ.

أي: بل أكثَرُ هؤلاء المُشرِكينَ لا يَعلَمونَ الحَقَّ الذي أنزَلَه اللهُ؛ فهم مُعرِضونَ عنه، فلا يتفَكَّرون فيه، ولا يُؤمِنونَ به ويتَّبِعونَه.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25).

أي: وما أرسَلْنا مِن قَبْلِك –يا مُحمَّدُ– مِن رَسولٍ إلى أمَّةٍ مِن الأُمَمِ إلَّا نُوحي إليه أنَّه لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا أنا، فوحّدوني، وأخْلِصُوا العِبادةَ لي.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ [النحل: 36].

وقال عزَّ وجلَّ: وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ [الزخرف: 45].

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (26).

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا.

أي: وقال المُشرِكونَ: اتخذَ الرَّحمنُ الملائِكةَ بناتٍ له!

سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ.

أي: تنزيهًا لله أن تكونَ الملائِكةُ بَناتٍ له؛ فليس الأمرُ كما وَصَفوا، بل الملائِكةُ عِبادٌ لله، خاضِعونَ له، مُشَرَّفونَ مُقرَّبونَ عندَه.

لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (27).

لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ.

أي: لا يتكَلَّمونَ إلَّا بما يأمُرُهم اللهُ بقَولِه، ولا يقولونَ شيئًا لم يأذَنْ لهم به.

وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ.

أي: والملائِكةُ يعمَلونَ بما يأمُرُهم اللهُ به، ويطيعونَه ولا يُخالِفونَه.

كما قال تعالى: وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ [النحل: 50].

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (28).

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ.

أي: يعلَمُ اللهُ ما سيَعمَلُه الملائِكةُ مِن أقوالٍ وأفعالٍ فيما يَستَقبِلونَه، ويَعلَمُ ما مضى مِمَّا عَمِلوه؛ فلا خُروجَ لهم عن عِلمِه، كما لا خُروجَ لهم عن أمْرِه وتَدبيرِه.

وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى.

أي: ولا يَشفَعُ الملائِكةُ إلَّا لِمَن ارتَضى اللهُ الشَّفاعةَ له.

كما قال تعالى: وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى [النجم: 26].

وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ.

أي: والملائِكةُ لأجْلِ خوفِهم مِن اللهِ حَذِرونَ مِن أن يعصُوه، فيَحِلَّ بهم غَضَبُه وعِقابُه.

كما قال تعالى: يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ [النحل: 50].

وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (29).

وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ.

أي: ومَن يَقُلْ مِن الملائِكةِ –على سَبيلِ الفَرضِ: إنِّي إلهٌ معبودٌ من دونِ اللهِ؛ فسنُعاقِبُه بإدخالِه جهنَّمَ.

كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ.

أي: كما نجزي مَن قال مِن الملائكةِ: إنِّي إلهٌ مِن دونِ اللهِ –على فرضِ وقوعِه– نَجزي أيضًا كلَّ من ظلَمَ نفسَه بوَضْعِه العبادةَ في غيرِ مَوضِعِها، فأشرك باللهِ وعبَدَ غيرَه.

سورةُ الأنْبياءِ

الآيات (30-33)

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ
حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (30) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا
لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (31) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (32) وَهُوَ
الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33)

غريب الكلمات:

رَتْقًا: أي: مُصْمَتتيْنِ، أو: مُنسَدَّتَينِ مُلتَئِمَتَينِ، والرتقُ: الضَّمُّ والالتِحامُ.

فَفَتَقْنَاهُمَا: أي: صَدَعْناهما، وفَرَجْناهما، والفَتقُ: الفَصلُ بين المتَّصِلَينِ، وهو ضِدُّ الرَّتقِ، وأصلُ (فتق): يدُلُّ على فَتحٍ في شَيءٍ.

رَوَاسِيَ: أي: جبالًا ثوابِتَ، والرَّواسي: جمعُ راسيةٍ، وهي الثابتةُ، وأصلُ (رسي): يدُلُّ على ثباتٍ.

تَمِيدَ: أي: تميلَ وتتحَرَّكَ، وأصلُ (ميد): يدُلُّ على حَرَكةٍ في شَيءٍ.

فِجَاجًا: أي: مَسالِكَ وطُرُقًا، ومفردُه: فَجٌّ، وكلُّ فَتحٍ بينَ جَبَلينِ أو شَيئَينِ فهو فجٌّ، ويُستعمَلُ في الطَّريقِ الواسعِ، وأصلُ (فجج): يدُلُّ على تفتُّحٍ وانفِراجٍ.

سُبُلًا: أي: طُرُقًا، جمعُ سبيلٍ، وسُمِّي الطَّريقُ بذلك؛ لامتِدادِه، والسَّبيلُ: الطَّريقُ الذي فيه سهولةٌ، وأصلُ (سبل): يدُلُّ على امتِدادِ شيءٍ.

فَلَكٍ: الفَلَكُ: مَدارُ النُّجومِ الذي يضُمُّها، وأصلُ (فلك): يدُلُّ على استدارةٍ في شَيءٍ.

تفسير الآيات:

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (30).

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا.

أي: أولَمْ يَنظُرِ الكُفَّارُ فيَعلَموا أنَّ السَّماءَ كانت مُصْمَتةً لا تُمطِرُ، والأرضَ كانت مُصمَتةً لا تُنبِتُ، فصَدَعْنا السَّماءَ فأمطَرَت، وشقَقْنا الأرضَ فأنبَتَتْ؟![24]

---

(24) اختُلِف في معنى قوله: ﴿كانَتا رَتْقًا فَفَتَقْناهُما﴾ على أقوال: الأول: كانت السموات والأرض ملتصقتين، ففتق الله بينهما بالهواء.

قاله ابن عباس.

والثاني: كانت السماء ملتصقة بعضها ببعض، والأرض كذلك، ففتقهما الله سبعًا سبعًا.

قاله مجاهد.

والثالث: إنما قيل: ﴿ففتقناهما﴾ لأن الليل كان قبل النهار، ففتق النهار.

والرابع: السماء قبل المطر رتْق، والأرض قبل النبات رتق، ففتقهما تعالى بالمطر والنبات.

ورجَّح ابنُ جرير (١٦/ ٢٥٩) مستندًا إلى السياق القولَ الأخير الذي قاله عكرمة، وعطية، وابن زيد، فقال: «لدلالة قوله: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ على ذلك، وأنه -جلَّ ثناؤه- لم يُعْقِب ذلك بوصف الماء بهذه الصفة إلا والذي تَقَدَّمه من ذكر أسبابه».

وعلَّق ابنُ عطية (٦/ ١٦٣) على هذا القول بقوله: «وهذا قول حسن، يجمع العبرة، وتعديد النعمة، والحجة بمحسوس بيّن، ويناسب قوله: ﴿وجَعَلْنا مِنَ الماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾، أي: مِن الماء الذي أوجده الفتق، فيظهر معنى الآية، ويتوجه الاعتبار».

ثم بيّن (٦/ ١٦٤) أنّ قوله: ﴿كانَتا﴾ في القولين الأولين بمنزلة قولك: كان زيد حيًّا، أي: لم يكن، وفي القولين الآخرين بمنزلة قولك: كان زيدًا عالمًا، أي: وهو كذلك.

كما قال تعالى: فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا [عبس: 24 – 27].

وقال سُبحانَه: وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ [الطارق: 11، 12].

وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ.

أي: وخَلَقْنا من الماءِ كُلَّ شَيءٍ فيه حياةٌ.

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قلتُ: يا رَسولَ اللهِ، إنِّي إذا رأيتُك طابَتْ نَفسي، وقرَّتْ عيني، فأنبِئْني عن كُلِّ شَيءٍ، فقال: كُلُّ شَيءٍ خُلِقَ مِن ماءٍ)).[25]

أَفَلَا يُؤْمِنُونَ.

أي: أفلا يُؤمِنُ الذين كفَروا بما يُشاهِدونَه، فيَستَدِلُّوا به على وُجودِ الصَّانِعِ الفاعِلِ، المختارِ القادِرِ، ويُقِرُّوا باستحقاقِه وَحْدَه للعبادةِ، ولا يُشرِكوا به شَيئًا؟

(25) أخرجه أحمد (7932)، وابن حبان (2559)، والحاكم (7278).
صَحَّح إسنادَه الحاكِمُ، وقال ابن كثير في ((التفسير)) (340/5): إسنادُه على شرطِ الصَّحيحَينِ، إلَّا أنَّ أبا ميمونةَ مِن رجال السُّنَن.
وقال الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (19/5): رجالُه رجالُ الصَّحيحِ خلا أبا ميمونةَ، وهو ثقة.
ووثَّق رواتَه البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (481/5)، وصحَّح إسنادَه ابنُ حَجرٍ في ((فتح الباري)) (36/5)، وأحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (72/15)، والألباني في ((إرواء الغليل)) (190/1).

وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (31).

وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ.

أي: وجعَلْنا في الأرضِ جِبالًا ثابتةً؛ لئلَّا تضطرِبَ الأرضُ بهم.

كما قال تعالى: أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ [النمل: 61].

وقال سُبحانَه: وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ [المرسلات: 27].

وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ.

أي: وجعَلْنا فيها طُرُقًا واسِعةً سَهلةً؛ لِيَهتَدوا إلى السَّيرِ في الأرضِ، والوصولِ إلى مطالِبِهم مِن البلدانِ، ولِيَهتَدوا إلى ما فيها مِن دلائِلِ وحدانيَّةِ خالِقِها وقُدرتِه، وتفرُّدِه بأوصافِ الكَمالِ.[26]

---

(26) قال الماوردي: (لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ فيه وجهان: أحدُهما: سُبُلُ الاعتبارِ؛ لِيَهتَدوا بالاعتبارِ بها إلى دينِهم.
الثاني: مَسالِك لِيَهتَدوا بها إلى طُرُقِ بلادِهم).
((تفسير الماوردي)) (445/3).
وممن اختار الوجهَ الثاني: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطية، والقرطبي.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (261/16، 262)، ((تفسير ابن عطية)) (80/4)، ((تفسير القرطبي)) (285/11).
وقال ابن عاشور: (وَجُملَةُ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ مُستأنفةٌ إنشاءً؛ رَجاءَ اهتداءِ المشركينَ إلى وحدانيَّةِ اللَّهِ؛ فإنَّ هذه الدَّلائِلَ مُشاهَدةٌ لهم، واضحةُ الدَّلالةِ.
ويجوزُ أن يُرادَ بالاهتداءِ: الاهتداءُ في السَّيْرِ، أي جعَلْنا سُبُلًا واضحةً، غيرَ محجوبةٍ بالضِّيقِ؛ إرادةَ اهتدائِهم في سَيرِهم، فتكونُ هذه مِنَّةً أُخرى، وهو تدبيرُ اللَّهِ الأشياءَ على نحوٍ ما يلائِمُ الإنسانَ وَيُصْلِحُ أحوالَه).
((تفسير ابن عاشور)) (57/17).
وممن جمَع بينَ القولينِ: البقاعي، والسعدي.

كما قال تعالى: الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [الزخرف: 10].

وقال عزَّ وجلَّ: وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا [نوح: 19، 20].

وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (32).

وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا.

أي: وجعَلْنا السَّماءَ سَقفًا للأرضِ مَحفوظًا من السُّقوطِ عليهم، ومحفوظًا من الشَّياطينِ.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ [الحجر: 16 – 18].

وقال سُبحانَه: وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ [الحج: 65].

يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (414/12)، ((تفسير السعدي)) (ص: 522).

قال البقاعي: (لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ إلى منافِعِهم في ديارِهم وغيرِها، وإلى ما فيها مِن دلائِلِ الوَحدانيَّةِ وغيرِها، فيَعلَموا أنَّ وُجودَها لو كان بالطبيعةِ كانت على نَمَطٍ واحدٍ مُساويةً للأرضِ، مُتساويةً في الوَصفِ، وأنَّ كونَها على غيرِ ذلك دالٌّ على أنَّ صانِعَها قادِرٌ مُختارٌ، مُتفَرِّدٌ بأوصافِ الكَمالِ).

((نظم الدرر)) (414/12).

اختُلِف في عود الضمير في قوله تعالى: ﴿فِيهَا﴾؛ فقال قوم بعودته على الرواسي، وقال آخرون بعودته على الأرض.

ورجَّح ابنُ جرير (١٦/ ٢٦٢) القولَ الثاني الذي قاله قتادة مستندًا إلى دلالة العموم، فقال: «لأنها إذا كانت مِن ذكرها دخل في ذلك السهلُ والجبلُ، وذلك أنّ ذلك كله مِن الأرض، وقد جعل الله لخلقه في ذلك كله فجاجًا سبلًا.

ولا دلالة تدل على أنه عنى بذلك فجاج بعض الأرض التي جعلها لهم سبلًا دون بعض؛ فالعموم بها أولى».

وعلَّق ابنُ عطية (٦/ ١٦٤) على هذا القول بقوله: «وهو أحسن».

وقال عزَّ وجلَّ: أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ [ق: 6].

وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ.

أي: وهم عن آياتِ السَّماءِ الدَّالَّةِ على وحدانيَّةِ اللهِ وكَمالِ قُدرَتِه وحِكمَتِه وصِفاتِه، واستِحقاقِه للعبادةِ وَحْدَه- مُعرِضُون عن التفكُّرِ والتدبُّرِ فيها.

كما قال سُبحانَه: وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ [يوسف: 105].

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33).

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ.

أي: واللهُ وَحْدَه هو الذي خلَقَ اللَّيلَ والنَّهارَ والشَّمسَ والقَمَرَ، وفيها دَلالاتٌ على عَظيمِ سُلطانِه، وأنَّ العبادةَ له دونَ كُلِّ ما سواه، ولِينتَفِعَ النَّاسُ بها في شُؤونِ دينِهم ودُنياهم.

كما قال تعالى: فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [الأنعام: 96].

وقال سُبحانَه: وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [النحل: 12].

كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ.

أي: كلٌّ مِنَ اللَّيلِ والنَّهارِ والشَّمسِ والقَمَرِ في فلَكٍ[27] دائرٍ، يجْرونَ بسُرعةٍ كالسَّابحِ في الماءِ.[28]

(27) اختُلِف في الفلك على أقوال: الأول: هو كهيئة حديدة الرحى.

والثاني: سرعة جري الشمس والقمر والنجوم وغيرها.

والثالث: بل هو القطب الذي تدور به النجوم.

والرابع: طاحونة كهيئة فلك المغزل.

ورجَّح ابنُ جرير (١٦/ ٢٦٦ – ٢٦٧ بتصرف) مستندًا إلى اللغة، وعدم الدليل على التعيين جوازَ تلك الأقوال، فقال:

«والصواب من القول في ذلك أن يُقال كما قال الله – عز وجل –: ﴿كل في فلك يسبحون﴾، وجائزٌ أن يكون ذلك الفلك كما قال مجاهد: كحديدة الرحى، وكما ذكر عن الحسن: كطاحونة الرحى، وجائز أن يكون موجًا مكفوفًا، وأن يكون قطب السماء.

وذلك أنّ الفلك في كلام العرب هو كل شيء دائر، فجمعه: أفلاك ...

وإذا كان كل ما دار في كلامها فلكًا، ولم يكن في كتاب الله ولا في خبر عن رسول الله – ﷺ – ولا عمَّن يقطع قوله العذر دليلٌ يدل على أي ذلك هو من أيٍّ؛ كان الواجب أن نقول فيه ما قال، ونسكت عمّا لا عِلْم لنا به.

فإذ كان الصواب في ذلك مِن القول ما ذكرنا فتأويل الكلام: والشمس والقمر كل ذلك في دائر يسبحون».

وحكى ابنُ عطية (٦/ ١٦٥) هذه الأقوال، ثم ذكر أنّ المعنى لا ينبغي التَّسَوُّر عليه، ثم قال: «غير أنّا نعرف أنّ الفلك جسم مستدير».

ونقل ابنُ تيمية (٤/ ٣٧٠) اتفاق أهل التفسير واللغة على أن الفلك: هو المستدير.

(28) قال ابن تيميَّة: (الأفلاكُ مُستديرةٌ، كما أخبرَ اللهُ ورَسولُه، وكما ذكَرَ ذلك علماءُ المُسلمينَ وغَيرُهم.

فذكر أبو الحُسينِ ابن المنادي، وأبو محمد بن حزم، وأبو الفرج بن الجوزي، وغَيرُهم: إجماعَ المُسلمِينَ على أنَّ الأفلاكَ مُستَديرةٌ.

وقال ابنُ عبَّاسٍ في قوله: كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ قال: في فَلكةٍ مِثلِ فَلكةِ المِغزَلِ، والفَلَكُ في لغةِ العَرَبِ: الشَّيءُ المستديرُ).

((مجموع الفتاوى)) (595/6).

كما قال تعالى: وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ [يس: 37 – 40].

سورةُ الأنْبياءِ

الآيات (34–40)

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (34) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ
وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (35) وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا
هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (36) خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ
عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (37) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ
(38) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ
يُنْصَرُونَ (39) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (40)

غريب الكلمات:

مِنْ عَجَلٍ: أي: عَجُولًا، والعَجَلةُ: طَلَبُ الشَّيءِ وتَحرِّيه قبلَ أوانِه، وأصلُ (عجل): يدُلُّ على الإسراعِ.

فَتَبْهَتُهُمْ: أي: تَغشاهم فجأةً، وأصلُ (بهت): يدلُّ على الدَّهَشِ والحَيرةِ.

تفسير الآيات:

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (34).

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ.

أي: وما خلَّدْنا –يا محمَّدُ– أحدًا مِن البَشَرِ قَبْلَك في الدُّنيا؛ فنُخَلِّدَك فيها، ولا بُدَّ لك مِن أن تموتَ فيها كما مات مَن قَبْلَك.

كما قال تعالى: إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ [الزمر: 30].

أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ.

أي: فهل إذا متَّ –يا محمَّدُ– سيُخَلَّدُ المُشرِكونَ في الدُّنيا مِن بَعدِك؟! كلَّا، بل سيموتونَ.

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (35).

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ.

أي: كلُّ نَفسٍ مخلوقةٍ لا بدَّ أن تذوقَ ألَمَ مُفارَقةِ جَسَدِها.[29]

---

(29) قال ابنُ القيمِ: (الصَّوابُ أن يُقال: موتُ النُّفوسِ هو مفارقتُها لأجسادِها، وخروجُها منها، فإنْ أُريدَ بموتِها هذا القدْرُ فهي ذائقةُ الموتِ، وإنْ أُريدَ أنَّها تعدمُ وتضمحلُّ وتصيرُ عدمًا محْضًا فهي لا تموتُ بهذا الاعتبارِ، بل هي باقيةٌ بعدَ خلقِها في نعيمٍ أو في عذابٍ).

((الروح)) (ص: 34).

وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً.

أي: ونختبِرُكم –أيُّها النَّاسُ– بالمصائِبِ والشِّدَّةِ تارةً، وبالرَّخاءِ والنِّعَمِ تارةً أخرى؛ فِتنةً لكم لِننظرَ صَبْرَكم وشُكرَكم.

كما قال تعالى: وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [الأعراف: 168].

وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ.

أي: وإلينا –أيُّها النَّاسُ– تُرَدُّونَ لا إلى غيرِنا، فنُجازيكم بحَسَبِ أعمالِكم.

كما قال تعالى: إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ [الغاشية: 25، 26].

وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (36).

وقال ابنُ رجب: (النَّفسُ يُرادُ بها مجموعُ الرُّوحِ والبَدَنِ، كما في قوله تعالى: وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا [الشمس: 7– 8]، وقَولِه سبحانه وتعالى: فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ [النجم: 32] ، وقَولِه تعالى: وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ [النساء: 29] ...
وقولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «ما مِن نفسٍ مَنفوسةٍ اليَومَ، يأتي عليها مئةُ سَنَةٍ وهي حَيَّةٌ يومَئذٍ»...
والمرادُ: مَوتُ الأحياءِ الموجودينَ في يَومِه ذلك، ومفارقةُ أرواحِهم لأبدانِهم قبل المئةِ سَنةٍ، ليس المرادُ عَدَمَ أرواحِهم واضمِحلالَها،
فكذلك قَولُه سُبحانه وتعالى: كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ، إنَّما المرادُ كُلُّ مخلوقٍ فيه حياةٌ فإنَّه يذوقُ الموتَ، وتفارِقُ رُوحُه بَدَنَه،
[فإن أراد مَن قال: إنَّ النَّفسَ والرُّوحَ تَموتُ، أنَّها تذوقُ ألَمَ مُفارقةِ الجَسَدِ، فهو حقٌّ]).
((أهوال القبور)) (ص: 126).
وقال ابنُ عطيةَ: (وقولُه: كُلُّ نَفْسٍ عمومٌ يُرادُ به الخصوصُ، والمرادُ كلُّ نفسٍ مخلوقةٌ).
((تفسير ابن عطية)) (81/4).

وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا.

أي: وإذا رآك -يا محمَّدُ- كفَّارُ قُرَيشٍ، يَستَهزِئونَ ويَستَخِفُّونَ بك.

كما قال تعالى: وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا [الفرقان: 41].

أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ.

أي: يقولونَ إذا رأَوُا الرَّسولَ -استِنكارًا-: أهذا هو الذي يَعيبُ أصنامَكم التي تَعبُدونَها؟

وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ.

أي: وهؤلاء المُستَهزِئونَ بالرَّسولِ يَكفُرونَ بذِكرِ الرَّحمنِ(30) الذي يُنعِمُ عليهم!

---

(30) قيل: معنى وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ: أي أنَّهم كافِرونَ باللهِ وما يجبُ أن يُذكَرَ به مِن الوحدانيَّةِ.
وممن اختار هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سليمان، والزمخشري، والنسفي، والعُليمي، والشنقيطي.
يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/79)، ((تفسير الزمخشري)) (3/116)، ((تفسير النسفي)) (2/403)، ((تفسير العليمي)) (4/355)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (4/149).
وقيل: المعنى: الذِّكرُ الذي يستَحِقُّه الرحمنُ مِن المدحِ والثناءِ مما هو أهلٌ له.
وممن اختار هذا المعنى: ابنُ جرير، وابنُ تيميَّة.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/270)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (8/431).
قيل: المرادُ بالذِّكرِ هنا: الذِّكرُ الواردُ مِن الرَّحمنِ، وهو: القرآنُ.
وممَّن ذهب إلى ذلك: القرطبي، وأبو حيان، وابنُ عاشور.
يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (11/288)، ((تفسير أبي حيان)) (7/430)، ((تفسير ابن عاشور)) (17/66).
قال ابنُ عاشور: (ومعنَى كُفرِهم بذِكرِ الرحمنِ: إنكارُهم أنْ يكونَ القرآنُ آيةً دالَّةً على صِدْقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم، فقالوا: فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ [الأنبياء: 5].
وأيضًا كُفرُهم بما جاءَ به القرآنُ مِن إثباتِ البعثِ).
((تفسير ابن عاشور)) (17/66).

خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (37).

خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ.

أي: طُبع الإنسانُ ورُكِّبَ على العَجَلةِ.[31]

وقيل: معنى كُفرِهم بذِكرِ الرَّحمنِ هو أنَّهم قالوا: ما نعرِفُ الرحمنَ، فكفروا بالرحمنِ، أي: بتسميتِه بهذا الاسمِ.

وممن اختار هذا القولَ: السمعانيُّ، وابنُ الجوزي، والرسعني، والشربيني.

يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (3/380)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/190)، ((تفسير الرسعني)) (4/616)، ((تفسير الشربيني)) (2/504).

قال الشّنقيطي: (قال بعضُ أهلِ العِلمِ: معنى كُفرِهم بذِكرِ الرَّحمنِ: هو الموضَّحُ في قَولِه تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا [الفرقان: 60] ، وقولهم: ما نَعرِفُ الرَّحمنَ إلَّا رحمنَ اليمامةِ، يعنون مسيلِمةَ الكَذَّاب.

وقد بيَّن ابنُ جريرٍ الطبريُّ وغيرُه أنَّ إنكارَهم لمعرفتِهم الرَّحمنَ تجاهُلٌ منهم ومُعاندةٌ، مع أنَّهم يعرفونَ أنَّ الرَّحمنَ مِن أسماءِ اللهِ تعالى.

قال: وقال بعض شعراء الجاهليَّةِ الجهلاء: ألَا ضربَت تلك الفتاةُ هجينَها ...

ألا قطَعَ الرَّحمنُ رَبِّي يمينَها).

((أضواء البيان)) (4/148).

(31) وممَّن اختار هذا المعنى المذكورَ: القرطبيُّ، والبقاعي، والسعدي، وابن عاشور، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (11/288)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (12/420)، ((تفسير السعدي)) (ص: 523)، ((تفسير ابن عاشور)) (17/68)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (4/150).

وممن نصَّ على أنَّ المرادَ بالإنسانِ هنا: الجنسُ: ابنُ عطيةَ، والرسعني، وابنُ جزي، والعُليمي، والشوكاني، والقاسمي، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (4/82)، ((تفسير الرسعني)) (4/616)، ((تفسير ابن جزي)) (2/22)، ((تفسير العليمي)) (4/356)، ((تفسير الشوكاني)) (3/481)، ((تفسير القاسمي)) (7/194)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (4/150).

وقيل: المرادُ بالإنسانِ: آدمُ، وعلى هذا القولِ فمعنى الكلامِ: أنَّه خُلِق عجولًا –ونسَبه ابنُ الجوزي للأكثرينَ– ولمَّا طُبع آدمُ على هذا المعنى، وُجِد في أولادِه، وأوْرَثهم العَجَلَ.

وقيلَ: غيرُ ذلك.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (3/191).

قال الشوكاني: (خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ أي: جُعِل لفَرطِ استعجالِه كأنَّه مخلوقٌ مِن العَجَلِ.

كما قال تعالى: وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا [الإسراء: 11].

قال الفرَّاءُ: كأنَّه يقولُ: بِنيتُه وخِلقتُه من العَجَلةِ وعلى العَجَلةِ.

وقال الزجَّاجُ: خوطِبَت العرَبُ بما تَعقِلُ، والعَرَبُ تقولُ للذي يَكثُرُ منه الشَّيءُ: خُلِقْتَ منه! كما تقولُ: أنتَ مِن لَعِبٍ، وخُلِقْتَ مِن لَعِبٍ؛ تريدُ المُبالغةَ في وَصفِه بذلك، ويدُلُّ على هذا المعنى قَولُه تعالى: وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا [الإسراء: 11]).

((تفسير الشوكاني)) (481/3).

ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (203/2)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (392/3).

اختُلِف في معنى قوله: ﴿على عجل﴾ على أقوال: الأول: مِن عَجَل في بنْيته وخلقته.

والثاني: من تعجيل في خلق الله إيّاه، وأن ذلك كان في تعجل الله خلقه قبل الغروب.

وذكر ابنُ جرير (١٦/ ٢٧٣) أن آخرين من أهل العربية –ممن قالوا ذلك أيضًا– وجَّهوا التعجيل مِن الله بأنه كان في الأمر؛ لأنه قال: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ [النحل: ٤٠].

ورجَّح ابنُ جرير (١٦/ ٢٧٤ بتصرف) مستندًا إلى السنة، وظاهر الآية القولَ الأول الذي قاله سعيد بن جبير، والسدي، وقتادة، وعكرمة، فقال: «وإنما قلنا ذلك لدلالة قوله تعالى: ﴿سأريكم آياتي فلا تستعجلون﴾ على ذلك، ولحديث أبي هريرة ...» وساق حديث أبي هريرة الوارد في الآثار المتعلقة بالآية.

وانتقد ابنُ عطية (٦/ ١٦٩) القول الثاني مستندًا لمخالفته لظاهر الآية، فقال: «وهذا قول ضعيف، ومعناه لا يناسب معنى الآية».

وكذا (٦/ ١٦٩) توجيه أهل العربية له بأن التعجل كان في الأمر –مستندًا إلى الدلالات العقلية– بأن فيه تخصيص ابن آدم بشيء كل مخلوق يشاركه فيه.

وبنحوه ابنُ جرير (١٦/ ٢٧٣).

وحكى ابنُ عطية (٦/ ١٦٨) في الآية أقوالًا أخرى: أحدها: أن قوله ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ على المقلوب.

وعلَّق عليه بقوله: «كأنه أراد: خُلق العجل مِن الإنسان، على معنى: أنه جعل طبيعة من طبائعه، وجزءًا من أخلاقه.

ثم قال:» وهذا التأويل ليس فيه مبالغة، وإنما هو إخبار مجرد، وإنما حمل قائليه عليه عدمهم وجه التجوز والاستعارة في أن يبقى الكلام على ترتيبه «.

وانتقده ابنُ جرير (١٦/ ٢٧٤) مستندًا لمخالفته الإجماع.

وثانيها: أن العجل: الطين، والمعنى: خلق آدم من طين.

وانتقده (٦/ ١٦٩ بتصرف) مستندًا لمخالفته ظاهر الآية، فقال:» وهذا ضعيف، ومعناه مغاير لمعنى الآية «.

وثالثها: أن قوله: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ على جهة المبالغة، كما تقول للرجل البطال: أنت مِن لعب ولهو.

ورجَّحه (٦/ ١٦٧ – ١٦٨ بتصرف) مستندًا إلى ظاهر الآية، فقال:» وهذا التأويل يتمُّ به معنى الآية المقصود في أن ذُمَّت عجلتهم، وقيل لهم على جهة الوعيد: إن الآيات ستأتي فلا تستعجلون".

سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ.

أي: سأُريكم -أيُّها المُستعجِلونَ ربَّهم بالعَذابِ- آياتِ عَذابي وانتِقامي، وحُكمي وقُدرَتي على مَن كَفرَ بي وعصاني؛ فلا تَستعجِلوا ربَّكم بالعذابِ!

كما قال تعالى: أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ [الصافات: 176].

وقال سُبحانَه: فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ [الذاريات: 59].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (38)﴾.

أي: ويقولُ هؤلاء المُستعجِلونَ ربَّهم بالآياتِ والعَذابِ لمحمَّدٍ - ﷺ - وللمُؤمنينَ به: متى يأتينا عَذابُ اللهِ إنْ كُنتُم صادقينَ فيما تَعِدوننا به منَ العذابِ؟[32]

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (39)﴾.

أي: لو يتيقَّنُ الكُفَّارُ المُستَعجِلونَ العَذابَ ماذا لهم من البَلاءِ حين تَلفحُ وجوهَهم النَّارُ، فلا يَستَطيعونَ في ذلك الوَقتِ أن يَكُفُّوا بأنفُسِهم النَّارَ عن وُجوهِهم ولا عن ظُهورِهم، ولا يجِدونَ لهم ناصِرًا ينصُرُهم، ويُنجِيهم مِن عَذابِ اللهِ؛ لَما استعجَلوا العذابَ، ولَتابوا وآمَنوا باللهِ.[33]

---

(32) وممن قال بهذا المعنى المذكور في الجملةِ: ابنُ كثير، والبقاعي، والسعدي.

يُنظر: المصادر السابقة.

قال الرسعني: (سَأُرِيكُمْ آيَاتِي قال المفسّرونَ: هو ما أصابهم مِن القتلِ والأَسْرِ يومَ بدرٍ.

قال ابنُ السائب: المعنى: إنَّكم تسافرونَ، فترَون آثارَ الهلاكِ في الماضينَ).

((تفسير الرسعني)) (618/4).

(33) وقال الشنقيطي: (معنى الآية الكريمة: لو يعلَمُ الكُفَّارُ الوَقتَ الذي يَسألَونَ عنه بقَولِهم: متى هذا الوعدُ؟ وهو وَقتٌ صعبٌ شَديدٌ، تحيطُ بهم فيه النَّارُ مِن وراءَ وقُدَّامَ، فلا يَقدِرونَ على مَنْعِها ودَفْعِها عن أنفُسِهم، ولا يجِدونَ ناصِرًا ينصُرُهم؛ لَما كانوا بتلك الصِّفةِ مِن الكفرِ والاستِهزاءِ والاستِعجالِ، ولكِنَّ جَهْلَهم بذلك هو الذي هوَّنَه عليهم).

((أضواء البيان)) (151/4).

وقيل: الضَّميرُ في يَكُفُّونَ عائدٌ إلى ملائكةِ العَذابِ، ومعنى الكَفِّ على هذا الوجهِ: الإمساكُ، أي: حين لا يُمسِكُ الملائكةُ اللَّفحَ بالنَّارِ عن وجوهِ المُشركِينَ، وتكونُ هذه الآيةُ في معنى قَولِه تعالى في سورة [الأنفال: 50] : وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا

كما قال تعالى: لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ [الأعراف: 41].

وقال سُبحانَه: سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ [إبراهيم: 50].

وقال عزَّ وجلَّ: إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا [الكهف: 29].

وقال تبارك وتعالى: لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ [الزمر: 16].

بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (40).

بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ.

أي: بل تأتيهم النَّارُ فجأةً، فتصيبُهم بالذُّعْرِ والخوفِ والحيرةِ فلا يَدرونَ ما يصنعونَ![34]

الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ؛ فإنَّ ذلك ضَربٌ بسياطٍ مِن نارٍ، ويكونُ ما هنا إنذارًا بما سيَلقَونه يومَ بَدرٍ، كما أنَّ آيةَ الأنفالِ حِكايةٌ لِما لَقُوه يومَ بدرٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (17/70).

قال الشـــوكاني: (وجوابُ «لَوْ» محذوفٌ، والتَّقديرُ: لو عَلِموا الوقتَ الذي لا يَكُفُّونَ عن وجوهِهم النَّارَ ولا عن ظُهورِهم ولا هم يُنصَرونَ، لَما استَعجَلوا الوعيدَ.

وقال الزَّجَّاجُ في تقديرِ الجوابِ: لعَلِموا صِدقَ الوَعدِ.

وقيل: لو عَلِموه ما أقاموا على الكُفرِ.

وقال الكِسائي: هو تنبيهٌ على تحقيقِ وقوعِ السَّاعةِ، أي: لو عَلِموه عِلمَ يقينٍ لعَلِموا أنَّ السَّاعةَ آتيةٌ، ويدُلُّ عليه قَولُه تعالى: بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً).

((تفسير الشوكاني)) (3/482).

ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (3/392).

(34) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/276، 277)، ((تفسير ابن كثير)) (5/343)، ((تفسير السعدي)) (ص: 524).

ممن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: بَلْ تَأْتِيهِمْ أي: النارُ: ابنُ جرير، وابنُ كثيرٍ، والسعدي.

كما قال تعالى: لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ [الشعراء: 201 -202].

فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ.

أي: فلا يَستَطيعونَ دَفْعَ النَّارِ عن أنفُسِهم حين تبغَتُهم، ولا هم يُمهَلونَ فيُؤخَّرُ عنهم العَذابُ لِيَتوبُوا.

يُنظر المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ: الساعةُ.

وممن اختاره: مقاتلُ بنُ سليمان، والسمرقندي، والسمعاني، والبغوي، وابنُ عطية.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/80)، ((تفسير السمرقندي)) (2/426)، ((تفسير السمعاني)) (3/381)، ((تفسير البغوي)) (3/289)، ((تفسير ابن عطية)) (4/83).

سورةُ الأنْبياءِ

الآيات (41–47)

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (41)
قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (42) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ
تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (43) بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ
وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ
الْغَالِبُونَ (44) قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ (45) وَلَئِنْ
مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (46) وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ
الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا
حَاسِبِينَ (47)

غريب الكلمات:

فَحَاقَ: أي: أحاطَ، ونزَلَ، وأصلُ (حيق): يدُلُّ على نُزولِ الشَّيءِ بالشَّيءِ.

يَكْلَؤُكُمْ: أي: يَحفَظُكم، ويحرُسُكم، والكِلاءةُ: حِفْظ الشَّيءِ وتَبقيتُه، وأصلُ (كلأ): يدُلُّ على مُراقبةٍ ونَظَرٍ.

يُصْحَبُونَ: أي: يُجارُونَ، ويُنصَرونَ؛ لأنَّ المُجِيرَ صاحِبٌ لجارِه. والعربُ تقولُ: صَحِبَك اللهُ، أي: حَفِظك اللهُ وأجارَك، وأصلُ (صحب): يدُلُّ على مُقارنةِ شَيءٍ، ومُقاربتِه.

أَطْرَافِهَا: أي: جَوانبِها، ونَواحيها، وأصلُ (طرف): يدُلُّ على حَدِّ الشَّيءِ وحَرْفِه.

الصُّمُّ: جمعُ الأصمِّ، والصَّمَمُ: فقدانُ حاسَّة السَّمع، وبه يُوصَف مَن لا يُصغِي إلى الحقِّ ولا يَقبلُه، وأصلُه: الصَّلابةُ، وقيل: السَّدُّ.

نَفْحَةٌ: أي: أدنَى شَيءٍ، والنَّفحةُ: الدَّفعةُ اليَسيرةُ مِن الشَّيءِ دُونَ مُعظَمِه، والنَّصيبُ والحَظُّ، مِن قَولِهم: نفح فلانٌ لفُلانٍ مِن عَطائِه: إذا أعطاه قَسمًا أو نصيبًا، وأصلُ (نفح): يدُلُّ على اندِفاعِ الشَّيءِ.

خَرْدَلٍ: الخَردَلُ: حُبوبٌ دَقيقةٌ كحَبِّ السِّمسِمِ، هي بُزورُ شَجَرٍ يُسَمَّى عند العَرَبِ الخَرْدَلَ. ويُضرَبُ به المَثَلُ في الصِّغَرِ والحَقارةِ.

تفسير الآيات:

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (41).

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ.

أي: ولقد استهزأ كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ برُسُلِهم الذين أرسَلْناهم مِن قَبلِك –يا مُحَمَّدُ– فاصبِرْ على استِهزاءِ الكافرينَ كما صبرَ عليه غَيرُك مِن الرُّسُلِ.

كما قال عزَّ وجلَّ: فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ [الأحقاف: 35].

فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ.

أي: فنزلَ وأحاط بالكافِرينَ الذين سَخِروا مِنَ الرُّسُلِ العذابُ الذي كانوا يَستَهزِئونَ به في الدُّنيا، ويُكَذِّبونَ بوُقوعِه.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا [الأنعام: 34].

قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (42).

قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لكُفَّارِ قَومِك: مَن يحرُسُكم ويَحفَظُكم باللَّيلِ والنَّهارِ مِن الرَّحمنِ؟(35)

بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ.

---

(35) قيل: قَولُه تعالى: مِنَ الرَّحْمَنِ يعني: بَدَلًا من الرَّحمنِ، وذلك كقولِه تعالَى: وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ أي: لجعَلْنا بَدَلًا منكم.

فمعنى الآيةِ على ذلك: مَن يحفَظُكم ويحرُسُكم ويمنَعُ عنكم العذابَ غيرُ الرحمنِ؟ وممن اختار هذا المعنى: ابنُ تيميَّة، وابنُ كثير، والسعدي.

يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (441/27) و(372/35)، ((تفسير ابن كثير)) (344/5)، ((تفسير السعدي)) (ص: 524).

وقيل: المعنى: مَن يحفَظُكم مِن بأسِ الرحمنِ وعذابِه إن أراد أن يُنزِلَه بكم؟ وممن اختار هذا المعنى: مقاتل بنُ سليمان، وابن جرير، والزجاج، والسمعاني، والزمخشري، والرسعني، والقرطبي، وابن عاشور، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (81/3)، ((تفسير ابن جرير)) (278/16)، ((معاني القرآن)) للزجاج (393/3)، ((تفسير السمعاني)) (382/3)، ((تفسير الزمخشري)) (118/3)، ((تفسير الرسعني)) (619/4)، ((تفسير القرطبي)) (291/11)، ((تفسير ابن عاشور)) (74/17)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (153/4، 154).

أي: بل الكُفَّارُ مُعرِضونَ عن ذكرِ ربِّهم[36]؛ جهلًا منهم، وسفهًا.[37]

---

(36) ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ذِكْرِ رَبِّهِمْ القرآنُ: مقاتلُ بنُ سـليمان، ويحيى بنُ سـلام، والواحدي، والبغوي، وابنُ الجوزي – وكلاهما زاد: مواعظ الله–، والرسعني، والقرطبي، والعليمي.

يُنظر: ((تفسـير مقاتل بن سـليمان)) (81/3)، ((تفسـير يحيى بن سـلام)) (315/1)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 716)، ((تفسـير البغوي)) (289/3)، ((تفسـير ابن الجوزي)) (191/3)، ((تفسـير الرسـعني)) (619/4)، ((تفسير القرطبي)) (291/11)، ((تفسير العليمي)) (358/4).

قال ابن جرير: (بل هم عن ذكرِ مواعظِ ربِّهم، وحُججِه التي احتجَّ بها عليهم معرضـونَ، لا يتدبَّرونَ ذلك، فلا يعتبرونَ به؛ جهلًا منهم وسفهًا).

((تفسير ابن جرير)) (279/16).

وممن اختار أنَّ المعنى: لا يُخطِرون ذِكرَه تعالى ببالِهم، فضلًا أن يخافوا بأسَه: الزمخشري، والبيضاوي، والنسفي، والنيسابوري، وأبو السعود، والقاسمي.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (118/3)، ((تفسير البيضاوي)) (52/4)، ((تفسير النسفي)) (405/2)، ((تفسير النيسابوري)) (22/5)، ((تفسير أبي السعود)) (69/6)، ((تفسير القاسمي)) (196/7).

قال النسفي: (المعنى: أنَّه أمَرَ رَسولَه بسؤالِهم عن الكالئِ [أي: في قولِه: مَنْ يَكْلَؤُكُمْ]، ثمَّ بيَّنَ أنَّهم لا يَصلُحونَ لذلك؛ لإعراضِهم عن ذِكرِ مَن يَكلَؤُهم).

((تفسير النسفي)) (405/2).

وقال ابنُ جُزَي: (إذا سُئِلوا عن ذلك السُّؤالِ [مَنْ يَكْلَؤُكُمْ] لم يجيبوا عنه؛ لأنَّهم تقومُ عليهم الحُجَّةُ إن أجابوا، ولكِنَّهم يُعرِضـونَ عن ذِكرِ اللهِ، أي: عن الجوابِ الذي فيه ذِكرُ اللهِ).

((تفسير ابن جزي)) (23/2).

وقال الرازي: (ذِكْرِ رَبِّهِمْ...

هو الدَّلائلُ العَقليَّةُ والنَّقليَّةُ، ولطائفُ القرآنِ).

((تفسير الرازي)) (147/22).

وقال ابن كثير: (قولُه تعالَى: بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُـونَ أي: لا يَعترفونَ بنِعَمِه عليهم، وإحسـانِه إليهم، بل يُعرِضـونَ عن آياتِه وآلائه).

((تفسير ابن كثير)) (344/5).

(37) قال ابنُ عطية: (في آخرِ الكلامِ تقديرُ محذوفٍ، كأنه قال: ليس لهم مانِعٌ ولا كالئٌ، وعلى هذا النفيِ تركَّبت «بل» في قَولِه: بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ...

والمعنَى: أيظنُّونَ أنَّ آلهتَهم التي هي بهذه الصِّفةِ تَمنعُهم مِن دُوننا؟! بل ما يمنَعُهم أحَدٌ إلَّا نحن).

أَمْ لَهُمْ آَلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (43).

أَمْ لَهُمْ آَلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا.

أي: ألهؤلاءِ الكُفَّارِ آلِهةٌ غيرُنا تَحفَظُهم مِن عَذابِنا إن أنزَلْناه بهم؟[38]

لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ.

أي: لا تَقدِرُ آلهتُهم المزعومةُ أن تَنصُرَ أنفُسَها لِضَعفِها، فكيف تنصُرُ عابديها، وتمنَعُهم مِن عذابِنا؟!

((تفسير ابن عطية)) (84/4).

وقال ابنُ جزي: (قولُه: بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ بمعنى أنَّهم إذا سُئِلوا عن ذلك السُّؤالِ [أي: قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ] لم يجيبُوا عنه؛ لأنَّهم تقومُ عليهم الحُجَّةُ إن أجابوا، ولكِنَّهم يُعرِضونَ عن ذِكرِ اللهِ، أي: عن الجوابِ الذي فيه ذِكرُ اللهِ.

وقال الزمخشريُّ: معنى الإضرابِ هنا أنَّهم مُعرِضونَ عن ذِكرِه، فضلًا عن أن يخافُوا بأسَه).

((تفسير ابن جزي)) (23/2).

ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (118/3).

(38) قوله تعالى: ﴿ولا هم﴾ في المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم الكفار.

والثاني: أنهم الأصنام.

وفي معنى ﴿يُصْحَبُونَ﴾ أقوال: أحدها: يُجارُون.

والثاني: يُمنعون ويُنصرون.

والثالث: لا يُصحبون بخير.

ورجَّح ابنُ جرير (١٦/ ٢٨١) أنها في الكفار كما قال ابن عباس، ورجَّح أنّ معنى ﴿يصحبون﴾ مستندًا إلى اللغة: يجارون.

كما قال ابن عباس، فقال: «لأنّ العرب محكيٌّ عنها: أنا لك جار من فلان، وصاحب، بمعنى: أُجيرك، وأمنعك».

ثم بين أن مآل هذا القول عدم النصر والصحبة بخير، فقال: «وهم إذا لم يصحبوا بالجوار، ولم يكن لهم مانع من عذاب الله مع سخط الله عليهم؛ فلم يصحبوا بخير، ولم يُنصروا».

وذكر ابنُ عطية (٦/ ١٧١) أن قوله تعالى: ﴿ولا هم منا يصحبون﴾ يحتمل احتمالين: الأول: يجارون ويمنعون.

الثاني: ولا هم منا يصحبون بخير ولا بركة، ونحو هذا.

كما قال تعالى: أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ [الأعراف: 191، 192].

وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ.

أي: وليس لتلكَ الآلهةِ مُجيرٌ يُجيرُهم مِنَّا.(39)

---

(39) قال ابن الجوزي: (وَلَا هُمْ في المشارِ إليهم قولان: أحدُهما: أنَّهم الكفار، وهو قولُ ابنِ عبَّاس.
والثاني: أنَّهم الأصنامُ، قاله قتادةُ).
((تفسير ابن الجوزي)) (192/3).
وممن اختار الأولَ: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جريرٍ، والواحدي، وابن جزي.
يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (81/3)، ((تفسير ابن جرير)) (281/16)، ((البسيط)) للواحدي (85/15)، ((تفسير ابن جزي)) (23/2).
وممن اختار الثاني: الرسعني، وأبو حيانَ، والشوكاني، والألوسي، والشنقيطي.
يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (619/4)، ((تفسير أبي حيان)) (433/7)، ((تفسير الشوكاني)) (483/3)، ((تفسير الألوسي)) (50/9)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (156/4).
وممن اختار أنَّ معنى يُصْحَبُونَ: يُجارونَ: ابنُ جرير، والواحدي، والسمعاني، والعليمي، والشوكاني، والشنقيطي.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (281/16)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 716)، ((تفسير السمعاني)) (382/3)، ((تفسير العليمي)) (358/4)، ((تفسير الشوكاني)) (483/3)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (156/4).
وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس في روايةٍ عنه، والحسنُ، والكلبي.
يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (315/1)، ((تفسير ابن جرير)) (280/16).
وقال مجاهدٌ: يُمنعون.
يُنظر: ((تفسير سفيان الثوري)) (ص: 199).
قال الشنقيطي: (وقولُه في هذه الآيةِ الكريمةِ: وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ أي: يُجارُونَ...
وأغلبُ أقوالِ العُلماءِ في الآيةِ راجعةٌ إلى ما ذكَرْنا؛ كقولِ بعضِهم: يُصْحَبُونَ يُمنَعونَ.
وقَولِ بَعضِهم: يُنصَرونَ.
وقولِ بعضِهم: وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ أي: لا يصحَبُهم اللهُ بخيرٍ، ولا يجعَلُ الرَّحمةَ صاحبًا لهم.

كما قال تعالى: إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ [الأنبياء: 98، 99].

وقال سُبحانَه: احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ [الصافات: 22-26].

بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (44).

والعلمُ عندَ اللهِ تعالى.

((أضواء البيان)) (156/4).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (281/16).

بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ.

أي: ولكنَّ الذي أوجبَ استِمرارَهم على كُفرِهم وشِركِهم هو أنَّنا متَّعْنا مُشركِي قُرَيشٍ وآباءَهم مِن قَبلِهم بالنِّعَمِ، وأطَلْنا أعمارَهم، فظَنُّوا أنَّها لا تزولُ عنهم، فقَسَت قلوبُهم، واغترُّوا بإمهالِ اللهِ لهم، وأعرَضوا عن تدبُّرِ حُجَجِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فحمَلَهم ذلك على الطُّغيانِ، والاستِمرارِ على باطِلِهم.

كما قال تعالى: وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ [آل عمران: 178].

وقال سُبحانَه: وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ [الأعراف: 182، 183].

وقال عزَّ وجلَّ: وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا [الفرقان: 17، 18].

وقال تبارك وتعالى: بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ * وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ [الزخرف: 29، 30].

أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا.

أي: أوَلَم يرَ الكُفَّارُ أنَّا ننصُرُ المُسلِمينَ، ونفتَحُ لهم ديارَ المُشرِكينَ أرضًا بعدَ أرضٍ، فنَنقُصُ دارَ الكُفَّارِ، ونَزيدُ في دارِ الإسلامِ؟ أفلا يعتَبِرونَ بذلك فيخافونَ ظُهورَهم على أرضِهم، وقَهرِهم إيَّاهم؟![40]

---

(40) وممن اختار القولَ المذكورَ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحدي، والبغوي، والزمخشري، والرسعني، والقرطبي، والبيضاوي، والنسفي، والخازن، وابن جزي، والمحلي، وأبو السعود، والشوكاني.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (281/16، 282)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (151/3)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 716)، ((تفسير البغوي)) (290/3)، ((تفسير الزمخشري)) (119/3)، ((تفسير الرسعني)) (619/4)، ((تفسير القرطبي)) (292/11)، ((تفسير البيضاوي)) (52/4)، ((تفسير النسفي)) (406/2)، ((تفسير الخازن)) (226/3)، ((تفسير ابن جزي)) (407/1)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 424)، ((تفسير أبي السعود)) (70/6)، ((تفسير الشوكاني)) (484/3).

قال السمعاني: (نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا الأكثرون: أنَّ هذا هو ظهورُ النَّبيِّ، وفتحُه ديارَ الشِّركِ أرضًا أرضًا، وبلدةً بَلْدَةً، والدَّليلُ على صحةِ هذا التأويلِ أنَّه قال: أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ أي: ليست الغلبةُ لهم؛ إنَّما الغلبةُ لي ولرسولي).

((تفسير السمعاني)) (382/3).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس في رواية عنه، والضحاك، والحسن.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (574/13)، ((تفسير ابن الجوزي)) (501/2).

قال ابنُ عطية: (وهذا...

القولُ لا يتأتَّى إلَّا بأن نقَدِّرَ نزولَ هذه الآيةِ بالمدينةِ).

((تفسير ابن عطية)) (319/3).

وقال الألوسي: (والآيةُ...

مدنيةٌ، وهي نازلةٌ بعدَ فرضِ الجهادِ، فلا يَرِدُ أنَّ السورةَ مكِّيَّةٌ، والجهادُ فُرِض بعدَها حتى يقالَ: إنَّ ذلك إخبارٌ عن المستقبَلِ).

((تفسير الألوسي)) (51/9).

وقال الشنقيطي: (في معنى إتيانِ اللهِ الأرضَ يَنقُصُها من أطرافِها في هذه الآيةِ الكريمةِ أقوالٌ مَعروفةٌ للعُلَماءِ، وبَعضُها تدُلُّ له قرينةٌ قرآنيَّةٌ، وأمَّا القولُ الذي دَلَّت عليه القرينةُ القُرآنيَّةُ فهو أنَّ معنى نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أي: نَنقُصُ أرضَ الكُفرِ ودارَ الحَربِ، ونحذِفُ أطرافَها بتسليطِ المُسلِمينَ عليها، وإظهارِهم على أهلِها، وردِّها دارَ إسلامٍ، والقرينةُ الدَّالَّةُ على هذا المعنى هي قَولُه بعده: أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ، والاستِفهامُ لإنكارِ غلَبَتِهم.

وقيل: لِتقريرِهم بأنَّهم مغلوبون لا غالبون، فقولُه: أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ دليلٌ على أنَّ نَقْصَ الأرضِ مِن أطرافِها سَــبَبٌ لِغَلَبةِ المُســلِمينَ للكُفَّارِ، وذلك إنَّما يحصُلُ بالمعنى المذكورِ).

((أضواء البيان)) (157/4).

وقال البقاعي: (أَفَلَا يَرَوْنَ أي: يَعلَمونَ عِلمًا هو في وضوحِه مِثلَ الرُّؤيةِ بالبَصَرِ ...

نَأْتِي الْأَرْضَ أي: التي أهلُها كُفَّارٌ إتيانَ غَلَبةٍ لهم بتَسليطِ أوليائِنا عليهم؟!).

((نظم الدرر)) (426/12).

وقال ابن جرير: (يقول تعالى ذِكرُه: أفلا يرى هؤلاء المُشـرِكون بالله، السَّـائلونَ محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم الآياتِ، المُستعجِلوه بالعَذابِ: أنَّا نأتي الأرضَ نُخرِّبُها من نواحيها بقَهْرِنا أهلَها وغَلَبَتِناهم، وإجلائِهم عنها وقَتْلِهم بالسُّـــيوفِ؛ فيَعتَبِروا بذلك ويتَّعِظوا به، ويحذَروا مِنَّا أن نُنزِلَ مِن بأسِنا بهم نحوَ الذي قد أنزَلْنا بمن فعَلْنا ذلك به مِن أهلِ الأطرافِ؟!).

((تفسير ابن جرير)) (281/16).

ويُنظر كلامُ ابنِ كثيرٍ في نظيرِ هذه الآيةِ من سورةِ الرعدِ (آية 41)، حيث اختار أنَّ المرادَ هو ظهورُ الإسلامِ على الشركِ قريةً بعدَ قريةٍ.

((تفسير ابن كثير)) (473/4).

وقال في آيةِ سورةِ الأنبياءِ: (أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا [الأنبياء: 44] اختلَف المفسِّرونَ في معناه...

وأحسنُ ما فُسِّر بقولِه تعالَى: وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [الْأَحْقَاف:27]).

((تفسير ابن كثير)) (345/5).

قال الشِّنقيطيُّ تعليقًا على كلامِ ابنِ كثيرٍ: (ما ذكره ابنُ كثيرٍ صَوابٌ، واستقراءُ القُرآنِ العَظيمِ يدُلُّ عليه، وعليه فالمعنى: أفلا يرى كُفَّارُ مكَّةَ ومَن سار سَيرَهم في تكذيبِك -يا نبيَّ اللهِ- والكُفرِ بما جِئتَ به: أنَّا نأتي الأرضَ ننقُصُها من أطرافِها، أي: بإهلاكِ الذين كذَّبوا الرُّسُــلَ، كما أهلَكْنا قومَ صــالِحٍ وقومَ لوطٍ، وهم يمُرُّونَ بديارِهم، وكما أهلَكْنا قومَ هودٍ، وجعَلْنا ســبأً أحاديثَ ومَزَّقْناهم كُلَّ مُمَزَّقٍ؟!).

((أضواء البيان)) (157/4، 158).

وممن قال مِن الســـلفِ: إنَّ المرادَ هو خرابُ القُرى: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، وابنُ جريجٍ -وزاد وهلاك الناسِ-، وعكرمةُ في روايةٍ عنه.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (576/13).

وذهب السعدي إلى أنَّ المرادَ بنقصِ الأرضِ مِن أطرافِها: مَوتُ أهلِها شَيئًا فشيئًا، حتى يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَن عليها.

يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 524).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ: مجاهدٌ في روايةٍ عنه، وعكرمةُ في روايةٍ عنه، وعطاءٌ، وقتادةُ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (577/13)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (501/2).

وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ المراد: نقصانُ عددِ المشركينَ بدُخولِ كثيرٍ منهم في الإسلامِ مِن أهلِ مكَّةَ وغيرِهم.

أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ.

أي: أفكُفَّارُ مكَّةَ هم المُنتَصِرونَ على النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وأتباعِه المُؤمِنينَ؟! بل المُشرِكونَ هم المغلوبونَ الأخسَرونَ الأذَلُّونَ.

كما قال تعالى: أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ [القمر: 44، 45].

قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ (45).

قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: إنَّما أُخَوِّفُكم عذابَ اللهِ بالقُرآنِ الذي يُنزِلُه اللهُ علَيَّ، ولا أُحَذِّرُكم مِن قِبَلِ نَفسي.

كما قال تعالى: وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ [النمل: 92].

وقال سُبحانَه: فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ [ق: 45].

وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ.

أي: ولا يُصغي الكُفَّارُ إلى القُرآنِ، كأنَّهم صُمٌّ لا ينتَفِعونَ به حين يُخَوَّفونَ بآياتِه.

يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (17/76، 77).

كما قال تعالى: وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ [البقرة: 171].

وقال سُبحانَه: مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ [هود: 20].

وقال عزَّ وجلَّ: إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ [النمل: 80، 81].

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قِراءةُ تُسْمِعُ الصُّمَّ بتاءٍ مَضمومةٍ، وكسرِ الميمِ، بالخطابِ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، و(الصُّمَّ) بالفَتحِ على أنَّه مفعولٌ به لـ (تُسْمِعُ)، أي: أنت -يا محمَّدُ- لا تقدِرُ أن تُسمِعَ الصُّمَّ، وهم الكافِرون.(41)

2- قراءةُ يَسْمَعُ الصُّمُّ بياءٍ مفتوحةٍ، وفَتحِ الميمِ، و(الصُّمُّ) بالرَّفعِ على أنَّه فاعِلُ (يَسْمَعُ)، أي: أنَّ الكافرينَ ترَكوا استِماعَ ما يجِبُ عليهم استِماعُه وقَبولُه، وفيه معنى الذَّمِّ لِمن كان قادرًا على سَماعِ الحَقِّ فترَكَ استِماعَه.(42)

---

(41) قرأ بها ابنُ عامرٍ.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (323/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (166/2)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 467).
(42) قرأ بها الباقون.

وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (46).

أي: ولَئِنْ أصاب الكافرينَ المُستعجِلينَ بالعذابِ أقَلُّ شَيءٍ مِن عذابِ رَبِّك -يا مُحَمَّدُ- ليقولُنَّ نادمينَ مُتحَسِّرينَ: يا ويلَنا إنَّا كُنَّا ظالِمينَ لأنفُسِنا بعِبادتِنا غيرَ اللهِ![43]

وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (47).

وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/323، 324).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 468)، ((الكشف)) لمكي (2/111).

(43) ذهب ابنُ عطيةَ وأبو حيان والعليمي إلى أنَّ هذه النفحةَ مِن العذابِ في الدنيا.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (4/84)، ((تفسير أبي حيان)) (7/435)، ((تفسير العليمي)) (4/359).

وهذا القولُ ذكَر الألوسي أنَّه قيل بناءً على ما رُوي عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما مِن تفسيرِ النفحةِ بالجوعِ الذي نزَل بمكةَ.

يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (9/52).

واستظهر الألوسي أنَّ هذا المسَّ يكونُ يومَ القيامة.

وذكَر ابنُ عاشور أنَّ هذه النفحةَ مِن العذاب هي أولُ العذابِ في الآخرةِ.

يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (9/52)، ((تفسير ابن عاشور)) (17/79).

وقال ابنُ كثير: (ولئن مَسَّ هؤلاءِ المكذِّبينَ أدنَى شيءٍ مِن عَذابِ اللَّهِ، ليعترِفُنَّ بذُنوبِهم، وأنَّهم كانوا ظالمِينَ أنفسَهم في الدُّنيا). ((تفسير ابن كثير)) (5/345).

قال الطِّيبي: (والذي يدلُّ على أنَّ قولَه: وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ متعلِّقٌ بأحوالِ القيامةِ: إيقاعُ قولِه تعالى: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ حالًا من الضميرِ في لَيَقُولُنَّ بتقديرِ: نحنُ نضعُ، خاليًا عن الضميرِ، على منوالِ: جئتُكَ والشمسُ طالعةٌ). ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (10/353).

أي: ونُقيمُ الموازينَ العادِلةَ في يومِ القيامةِ؛ لِوَزنِ أعمالِ العِبادِ عند حِسابِهم.[44]

كما قال تعالى: وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ [الأعراف: 8، 9].

فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا.

---

(44) قال الشنقيطي: (اختلفوا في كيفيَّةِ هذا الوَزنِ على ثلاثةِ أقوالٍ لا يُكَذِّبُ بَعضُها بَعضًا، وقال بعضُ العُلَماءِ: لا مانِعَ مِن أن يقعَ جميعُها، فذهب أكثَرُ المفَسِّرين إلى أنَّ الموزونَ هو صحائِفُ الأعمالِ؛ لأنَّ كلَّ إنسانٍ له كتابٌ وصحائِفُ فيها عَمَلُه...

وذهبت جماعةٌ من العُلماءِ، ورواه غيرُ واحدٍ عن ابنِ عبَّاسٍ: أنَّ الموزونَ نفسُ الأعمالِ، وأنَّ اللهَ يُحَوِّلُ الأعمالَ الحَسَنةَ إلى أجرامٍ حَسَنةٍ مُضيئةٍ نَيِّرةٍ...

وقال بعضُ أهلِ العِلمِ: إنَّ ما يُوزَنُ أصحابُ الأعمالِ).

((العذب النمير)) (3/72-74).

وقال أيضًا: (الأحاديثُ النَّبويَّةُ، وظواهِرُ القرآنِ العَظيمةُ، وسائِرُ المُسلِمينَ -إلَّا مَن شَذَّ- كُلُّها مُتَّفِقةٌ على أنَّه ميزانٌ حَقيقيٌّ له لِسانٌ وكِفَّتانِ).

((العذب النمير)) (3/79).

وقال ابن أبي العز: (ثَبَت وزنُ الأعمالِ والعامِلِ وصحائِفِ الأعمالِ، وثَبَت أنَّ الميزانَ له كِفَّتانِ.

واللهُ تعالى أعلمُ بما وراءَ ذلك مِن الكيفيَّاتِ).

((شرح الطحاوية)) (2/613).

وقال الشنقيطي: (اللَّامُ في قَولِه: لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فيها أوجهٌ مَعروفةٌ عند العلماء: منها: أنَّها للتَّوقيتِ، أي: الدَّلالةِ على الوَقتِ...

ومنها: أنَّها لامُ «كي»، أي: نَضعُ الموازينَ القِسطَ؛ لأجْلِ يومِ القيامةِ، أي: لِحِسابِ النَّاسِ فيه حِسابًا في غايةِ العدالةِ والإنصافِ.

ومنها: أنَّها بمعنى «في»، أي: نضعُ الموازينَ القِسطَ في يومِ القيامةِ.

والكوفيونَ يقولونَ: إنَّ اللامَ تأتي بمعنى في، ويقولونَ: إنَّ مِن ذلك قَولَه تعالى: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ أي: في يومِ القيامةِ، وقَولَه تعالى: لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ [الأعراف: 187] أي: في وَقتِها، ووافقهم في ذلك ابنُ قُتيبةَ من المتقَدِّمين، وابنُ مالكٍ من المتأخِّرين).

((أضواء البيان)) (4/160).

أي: فلا يَظلِمُ اللهُ نفْسًا يومَ القيامةِ بالنَّقصِ مِن حَسَناتِها، أو بمُعاقَبتِها بغيرِ ذَنبِها، أو بالزِّيادةِ في سَيِّئاتِها.

كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا [النساء: 40].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ – ﷺ –: ((إنَّ اللهَ سيُخَلِّصُ رَجُلًا مِن أُمَّتي على رُؤوسِ الخلائِقِ يومَ القيامةِ، فيَنشُرُ عليه تِسعةً وتسعينَ سِجِلًّا، كلُّ سِجلٍّ مِثلُ مَدِّ البَصرِ،[45] ثمَّ يقولُ: أتُنكِرُ مِن هذا شيئًا؟ أظلَمَك كَتَبَتي الحافِظونَ؟ فيقولُ: لا يا رَبِّ، فيقولُ: أفلَك عُذرٌ؟ فيقولُ: لا يا رَبِّ، فيقولُ: بلى، إنَّ لك عندنا حَسَنةً، فإنَّه لا ظُلمَ عليك اليومَ، فتُخرَجُ بطاقةٌ فيها: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأشهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا عَبدُه ورَسولُه، فيقولُ: احضُرْ وَزْنَك، فيقولُ: يا رَبِّ، ما هذه البِطاقةُ مع هذه السِّجِلَّات؟! فقال: إنَّك لا تُظلَمُ، فتُوضَعُ السِّجِلاتُ في كَفَّةٍ، والبِطاقةُ في كفَّةٍ، فطاشت[46] السِّجِلاتُ، وثَقُلَت البطاقةُ؛ فلا يَثقُلُ مع اسمِ اللهِ شَيءٌ)).

وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا.

---

(45) مَدِّ البَصَرِ: أي: مِقدار ما يمتَدُّ إليه بصَرُ الإنسانِ.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (3531/8).

(46) فطاشَت: أي: خَفَّت.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (3532/8).

أي: وإن كان الَّذي للعبدِ مِن عملِ الحسناتِ، أو عليه مِن السَّيِّئاتِ وَزنَ حَبَّةٍ مِن خَردلٍ، جِئْنا بها لِتُوزنَ في الميزانِ.

كما قال تعالى: وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا [الكهف: 49].

وقال سُبحانَه: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [الزلزلة: 7، 8].

وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ.

أي: وكفَى بنا عالِمينَ بأعمالِ العِبادِ، حافِظينَ لها، مُثبِتينَ لها في الكِتابِ، عالِمينَ بمقاديرِها ومقاديرِ ثوابِها وعِقابِها واستِحقاقِها، مُوصِلينَ للعامِلينَ جَزاءَها، ولن نَظلِمَهم شيئًا؛ فليس في الحِسابِ أحدٌ مِثلُنا.(47)

كما قال تعالى: إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ [الغاشية: 25- 26].

(47) قال ابنُ عاشور: (التقدير: وكفى النَّاسَ نحنُ في حالِ حِسابِهم.
ومعنى: كفاهم نحن حاسِبينَ: أنَّهم لا يتطَلَّعونَ إلى حاسِبٍ آخَرَ يَعدِلُ مِثلَنا.
وهذا تأمينٌ للنَّاسِ مِن أن يُجازَى أحَدٌ منهم بما لا يَستَحِقُّه، وفي ذلك تحذيرٌ مِن العذابِ، وترغيبٌ في الثوابِ).
((تفسير ابن عاشور)) (87/17).

سورةُ الأنْبياءِ

الآيات (48-50)

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (48) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (49) وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (50)

تفسير الآيات:

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (48).

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ.

أي: ولقد آتينا موسى وهارونَ ما يُفرَقُ به بينَ الحَقِّ والباطِلِ.(48)

---

(48) وقولُه تعالى: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ فيه ثلاثةُ أقوالٍ: أحدُها: التوراةُ التي فَرَق بها بين الحلالِ والحرام.

والثاني: البرهانُ الذي فَرَق به بينَ حقّ موسى وباطِلِ فرعونَ.

والثالث: النَّصرُ والنَّجاةُ لموسى، وإهلاكُ فرعونَ.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (3/193).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالفرقانِ هنا: التوراةُ: مقاتل بن سليمان، والزجاج، وابن أبي زمنين، والبغوي، والزمخشري، وابنُ كثيرٍ، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/82)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (3/394)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (3/149)، ((تفسير البغوي)) (3/291)، ((تفسير الزمخشري)) (3/121)، ((تفسير ابن كثير)) (5/347)، ((تفسير السعدي)) (ص: 525).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: مجاهدٌ، وقتادةُ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/287)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/193).

وممن قال: الفُرقانُ: نَصرُ الله لموسى وهارونَ على فِرعَونَ وقَومِه: السمرقندي، وابن القيم.

يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (2/428)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (2/15).

وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: ابنُ السائبِ.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (3/193).

قال ابنُ جرير: (قال ابنُ زيد في قولِه تعالى: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ قال: الفرقانُ: الحَقُّ آتاه اللهُ موسى وهارونَ، فَرَق بينهما وبين فِرعَونَ، فقضى بينهم بالحَقّ.

وقرأ: وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ [الأنفال: 41] قال: يومَ بدرٍ.

وهذا القولُ الذي قاله ابنُ زيد في ذلك أشبَهُ بظاهِرِ التَّنزيلِ).

((تفسير ابن جرير)) (16/288).

قال تعالى: وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ * وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ * وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ [الصافات: 114 – 117].

وقال سبحانه: وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [البقرة: 53].

وقال عزَّ وجلَّ: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ [غافر: 23].

وقال ابنُ عاشور: (الفُرقانُ: ما يُفَرَقُ به بين الحَقِّ والباطِلِ مِن كلامٍ أو فعلٍ...

فيجوزُ أن يرادَ بالفُرقانِ: التَّوراةُ...

ويجوزُ أن يُرادَ بالفُرقانِ المُعجِزاتُ الفارِقةُ بين المُعجِزةِ والسِّحرِ...

ويجوزُ أن يرادَ به الشَّريعةُ الفارِقةُ بين العَدلِ والجَورِ...

وعلى الاحتمالاتِ المذكورةِ تجيءُ احتمالاتٌ في قَولِه تعالى الآتي: وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ وليس يلزَمُ أن تكونَ بَعضُ هذه الصفاتِ قَسيمًا لبعضٍ، بل هي صِفاتٌ مُتداخِلةٌ؛ فمجموعُ ما أوتِيَه موسى وهارونُ تتحَقَّقُ فيه هذه الصِّفاتُ الثَّلاثُ).

((تفسير ابن عاشور)) (17/88، 89).

اختُلِف في المراد بالفرقان؛ فقال قوم: هو التوراة التي فرق فيها بين الحق والباطل.

وقال ابن زيد: هو البرهان الذي فرَّق بين حق موسى وباطل فرعون.

ورجَّح ابنُ جرير (١٦/ ٢٨٨) القول الثاني مستندًا إلى الأغلب في اللغة، وانتقد الأول، فقال: «وذلك لدخول الواو في الضياء، ولو كان الفرقان هو التوراة –كما قال مَن قال ذلك– لكان التنزيل: ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ضياء.

لأن الضياء الذي آتى الله موسى وهارون هو التوراة التي أضاءت لهما ولمن اتبعهما أمر دينهم –فبصرهم الحلال والحرام، ولم يقصد بذلك في هذا الموضع ضياء الإبصار.

وفي دخول الواو في ذلك دليل على أنّ الفرقان غير التوراة التي هي ضياء.

فإن قال قائل: وما ينكر أن يكون الضياء مِن نعت الفرقان، وإن كانت فيه واوٌ، فيكون معناه: وضياء آتيناه ذلك، كما قال: ﴿...

بزينة الكواكب وحفظا﴾ [الصافات: ٦ – ٧]؟ قيل له: إنّ ذلك وإن كان الكلام يحتمله، فإن الأغلب من معانيه ما قلنا، والواجب أن يُوَجَّه معاني كلام الله إلى الأغلب الأشهر مِن وجوهها المعروفة عند العرب، ما لم يكن بخلاف ذلك ما يجب التسليم له مِن حُجَّة خبر، أو عقل».

وذكر ابنُ عطية (٦/ ١٧٤) أنّ قراءة ابن عباس ﴿ضياء﴾ بغير واو تؤيد القول الأول.

وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ.

أي: وآتينا موسى وهارونَ التَّوراةَ نورًا في القَلبِ، مُضيئةً طَريقَ الحقِّ، مُبَصِّرةً لِمن اتَّبَعَها أحكامَ دينِهم، وهي تذكيرٌ ومَوعِظةٌ للمُتَّقينَ الذين يمتَثِلونَ أوامِرَ اللهِ، ويجتَنِبونَ نواهيَه.(49)

الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (49).

الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ.

أي: آتيناهما التَّوراةَ ضِياءً وذِكرًا للمُتَّقينَ الذين يَخافونَ رَبَّهم في غَيبِهم وخَلَواتِهم حيثُ لا يَطَّلِعُ عليهم أحدٌ مِن النَّاسِ، فيَترُكونَ المُحَرَّماتِ، ويقومونَ بالواجِباتِ، مُخلِصينَ لله، خائِفينَ مِن عذابِه.(50)

---

(49) قال السَّعدي: (وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ يتذكَّرون به ما ينفعُهم وما يَضُرُّهم، ويُتذَكَّرُ به الخَيرُ والشَّرُّ).

((تفسير السعدي)) (ص: 525).

وقال ابنُ عاشور: (لأنَّه يُذَكِّرُهم بما يجهَلونَ، وبما يَذهَلونَ عنه مِمَّا عَلِموه، ويجَدِّدُ في نفوسِهم مُراقبةَ رَبِّهم).

((تفسير ابن عاشور)) (17/90،89).

وقال البقاعي: (وَذِكْرًا أي: وَعْظًا وشرفًا).

((نظم الدرر)) (12/431).

قال السمعاني: (وقولُه: وَضِيَاءً ...

هو صفةٌ أُخرَى للتوراةِ، إذا حَمَلْنا الفرقانَ على التَّوراةِ، وإنْ حَمَلْناه على البُرهانِ، فمعناه: أعطَيناه البرهانَ، وأعطيناه التَّوراةَ الَّتي هي ضِياءٌ).

((تفسير السمعاني)) (3/385).

(50) ذكر ابنُ عطية (٦/ ١٧٤) أنّ قوله تعالى: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ يحتمل ثلاثة احتمالات: أحدها: في غيبهم وخلواتهم وحيث لا يطلع عليهم أحد.

والثاني: أنهم يخشون الله تعالى على أنّ أمره تعالى غائب عنهم، وإنما استدلوا بدلائل لا بمشاهدة.

والثالث: أنهم يخشون الله ربَّهم بما أعلمهم به مِمّا غاب عنهم مِن أمر آخرتهم ودنياهم.

وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ.

أي: وهم مِن يومِ القيامةِ وأهوالِه خائِفونَ حَذِرونَ.

وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (50).

وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ.

أي: وهذا القرآنُ ذِكرٌ يتذَكَّرُ ويتَّعِظُ به المُؤمِنونَ، كثيرُ الخيراتِ في الدنيا والآخِرةِ، أنزَلْناه كما أنزَلْنا التوراةَ إلى موسى وهارون ذِكرًا للمُتَّقين.(51)

كما قال تعالى: وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ [الأنعام: 155].

وقال عزَّ وجلَّ: كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ [ص: 29].

أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ.

وذكر أنّ الأول أرجحها.

ولم يذكر مستندًا.

(51) وقال ابن عاشور: (وَصْفُ القرآنِ بالمبارَكِ يعُمُّ نواحيَ الخيرِ كُلَّها؛ لأنَّ البَرَكةَ زيادةُ الخيرِ؛ فالقرآنُ كُلُّه خيرٌ مِن جهة بلاغةِ ألفاظِه وحُسنِها، وسُرعةِ حِفظِه، وسهولةِ تلاوتِه، وهو أيضًا خَيرٌ لِما اشتَمَلَ عليه من أفنانِ الكلامِ والحِكمةِ والشريعةِ واللَّطائِفِ البلاغية، وهو في ذلك كلِّه آيةٌ على صِدقِ الذي جاء به؛ لأنَّ البَشَرَ عَجَزوا عن الإتيانِ بمِثلِه، وتحدَّاهم النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذلك فما استطاعوا، وبذلك اهتَدَت به أممٌ كثيرةٌ في جميعِ الأزمانِ، وانتفَعَ به مَن آمَنوا به، وفريقٌ ممَّن حُرِموا الإيمانَ، فكان وصفُه بأنَّه مباركٌ وافيًا على وَصفِ كتابِ موسى عليه السَّلامُ بأنَّه فُرقانٌ وضياءٌ).

((تفسير ابن عاشور)) (17/90، 91).

أي: أفأنتم للقُرآنِ مُنكِرونَ نُزولَه من عندِ اللهِ وهو في غايةِ الظُّهورِ؟ وكيف تُنكِرونَ كَونَه مُنَزَّلًا مِن عِندِه سُبحانَه مع اعتِرافِكم بأنَّ التَّوراةَ مُنَزَّلةٌ مِن عندِه؟!

سورةُ الأنْبياءِ

الآيات (51–61)

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ
التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (53) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ
أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (54) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55) قَالَ بَلْ
رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (56) وَتَاللَّهِ
لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ
يَرْجِعُونَ (58) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ
يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61)

غريب الكلمات:

رُشْدَهُ: أي: هُداه، والرُّشْدُ والرَّشَدُ: خِلافُ الغَيِّ، يُستعمَلُ استعمالَ الهدايةِ، وأصلُ (رشد): يدُلُّ على استقامةِ الطَّريقِ.

التَّماثِيلُ: جمعُ تِمثالٍ، وهي الأصنامُ، وأصلُ (مثل): يدُلُّ على مُناظَرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ.

عَاكِفُونَ: أي: مُقيمونَ، يُقال: عكَف على كذا: إذا أقام عليه، وأصلُ (عكف): يدُلُّ على مُقابلةٍ وحَبسٍ.

فَطَرَهُنَّ: أي: خَلَقهنَّ، وابتدأَهنَّ، وأصلُ الفَطْرِ: فتْحُ الشَّيءِ، وإبرازُه.

لَأَكِيدَنَّ: أي: لأمكُرَنَّ، والكَيدُ: ضَربٌ مِن الاحتيالِ، وقد يكونُ مَذمومًا ومَمدوحًا، وإن كان يُستعمَلُ في المذمومِ أكثَرَ، وأصلُ (مكر): يدُلُّ على مُعالجةٍ لِشَيءٍ بشِدَّةٍ.

جُذَاذًا: أي: فُتاتًا وحُطامًا، والجَذُّ: كَسرُ الشَّيءِ وتَفتيتُه، وأصلُه يدُلُّ على كَسرٍ وقَطعٍ.

تفسير الآيات:

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51).

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ.

أي: ولقد آتَينا إبراهيمَ هُداه مِن قَبلُ،[52] ووفَّقْناه للحَقِّ، وأنقَذْناه مِن بينِ قَومِه وأهلِ بَيتِه، مِن عِبادةِ الأوثانِ.[53]

---

(52) قيل: المرادُ: من قبلِ موسى وهارون.

وممن اختاره: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطية، والسمين الحلبي، والعُليمي، والقاسمي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (290/16)، ((تفسير ابن عطية)) (86/4)، ((الدر المصون)) (167/8) للسمين الحلبي، ((تفسير العليمي)) (362/4)، ((تفسير القاسمي)) (199/7).

وممن قال بهذا القول من السلفِ: الضحاكُ.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (194/3).

وممن خصَّ ذلك بالتوراةِ، أي: مِن قبلِ نزولِ التوراةِ، وإيتائِهما موسى وهارونَ عليهما السلامُ: ابنُ القيِّمِ، والشوكاني.

يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: 32، 33)، ((تفسير الشوكاني)) (486/3).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: 525)، ((تفسير ابن عاشور)) (93/17).

وقيل: المرادُ: من قَبلِ النبُوَّةِ.

وممن ذهب إليه: القرطبي، ونسَبه إلى أكثرِ أهلِ التفسيرِ.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (296/11).

وقيل: معنى مِنْ قَبْلُ: أي: مِن قبلِ البلوغِ، وهو صغيرٌ.

وممن ذهب إلى ذلك: البغوي، وابنُ كثير.

يُنظر: ((تفسير البغوي)) (291/3)، ((تفسير ابن كثير)) (347/5، 348).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس، ومجاهدٌ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (290/16)، ((تفسير ابن الجوزي)) (194/3).

ذكر ابنُ القيم (٢/ ١٩٧ – ١٩٨ بتصرف) في تفسير قوله: ﴿من قبل﴾ ثلاثة أقوال: الأول: أن معناه: حال صغره.

الثاني: أن معناه: في سابق عِلْمِنا.

الثالث: أنّ معناه: من قبل نزول التوراة.

وقد رجّح القولَ الثالث مستندًا إلى السياق، فقال: «وأصحُّ الأقوال في الآية أنّ المعنى: من قبل نزول التوراة. فإنّه سبحانه قال: ﴿ولَقَدْ آتَيْنا مُوسى وهارُونَ الفُرْقانَ وضِياءً وذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾، وقال: ﴿وهَذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أنْزَلْناهُ أفَأنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾، ثم قال: ﴿ولَقَدْ آتَيْنا إبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ﴾، ولهذا قطعت قبل عن الإضافة وبُنِيَت؛ لأن المضاف منويٌّ معلوم، وإن كان غير مذكور في اللفظ، فالسياق إنما يقتضي: مِن قبل ما ذُكِر».

وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ.

أي: وآتيناه رُشدًا عَظيمًا على عِلمٍ مِنَّا بأنَّه أهلٌ لذلك الرُّشدِ.(54)

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52).

أي: إذ قال إبراهيمُ لأبيه آزَرَ وقَومِه المُشرِكينَ: ما هذه الأصنامُ التي أنتم مُقيمونَ على عِبادتِها، والحالُ أنَّكم مثَّلْتُموها ونحتُّموها بأيديكم على صُوَرِ بَعضِ المخلوقاتِ، فكيف تعبُدونَ ما تَنحِتونَ؟!

كما قال تعالى عن إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ [الصافات: 85 – 87].

وانتقد ابنُ القيم مستندًا إلى ظاهر الآية والدلالة العقلية القولَ الثاني، فقال: «وقيل: المعنى بقوله: ﴿من قبل﴾ أي: في سابق علمنا، وليس في الآية ما يدل على ذلك، ولا هو أمر مختص بإبراهيم، بل كل مؤمن فقد قدّر الله هُداه في سابق علمه».

(53) قال ابن عطية: (الرُّشدُ عامٌّ في هدايتِه إلى رَفضِ الأصنامِ، وفي هدايتِه في أمرِ الكوكَبِ والشَّمسِ والقمَرِ، وغيرِ ذلك من النبُوَّةِ فما دونَها، وقال بعضُهم: معناه وُفِّق للخيرِ صَغيرًا.

وهذا كُلُّه متقاربٌ).

((تفسير ابن عطية)) (86/4).

(54) قال ابن عاشور: (وهذا العِلمُ الإلهيُّ مُتعَلِّقٌ بالنفسيَّةِ العظيمةِ التي كان بها مَحَلَّ ثَناءِ اللهِ تعالى عليه في مواضِعَ كَثيرةٍ من قرآنِه، أي: عَلِمَ مِن سَريرتِه صِفاتٍ قد رَضِيَها وأحمَدَها، فاستأهَلَ بها اتخاذَه خَليلًا، وهذا كقَولِه تعالى: وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ [الدخان: 32]، وقولِه تعالى: اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ [الأنعام: 124]).

((تفسير ابن عاشور)) (93/17).

قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (53).

أي: قال المُشرِكونَ لإبراهيمَ: وجَدْنا آباءَنا يَعبُدونَ هذه الأوثانَ؛ فنحن نعبُدُها مِثلَهم!

قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (54).

أي: قال إبراهيمُ: لقد كنتُم أنتم وآباؤُكم جميعًا في ذهابٍ عن سبيلِ الحقّ واضحٍ بيِّنٍ؛ بعِبادتِكم جماداتٍ لا تنفَعُ ولا تضُرُّ!

قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55).

أي: قال قَومُ إبراهيمَ: أجِئْتَنا -يا إبراهيمُ- بالحَقّ المُطابِقِ للواقِعِ فيما تقولُ، أمْ أنَّ كلامَك كلامُ مازحٍ هازلٍ مُستَهزِئٍ؟

قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (56).

قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ.

أي: قال إبراهيمُ لِقَومِه: بل جِئتُكم بالحَقّ لا باللَّعِبِ؛ فرَبُّكم رَبُّ السَّمواتِ والأرضِ الذي أوجَدَهنَّ وأبدَعَهنَّ وما فيهنَّ مِن جَميعِ المخلوقاتِ.

وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ.

أي: قال إبراهيمُ لِقَومِه: وأنا على ذلك الأمرِ البيّنِ مِن الشَّاهِدينَ بعِلمٍ وحُجَّةٍ.

وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57).

أي: قال إبراهيمُ: وواللهِ لأحتالَنَّ على أصنامِكم فأُلحِقُ بها الضَّرَرَ بعد أن تَنصَرِفوا عنها.

فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (58).

أي: فكسَّر إبراهيمُ الأصنامَ، وجعَلَها قِطَعًا مُهَشَّمةً إلَّا صَنَمًا كَبيرًا عِندَهم لم يُكَسِّرْه؛ لعَلَّ عابِديه يسألونَه عمَّن كَسَّرَ أصنامَهم، فيتبيَّنَ لهم عجْزُه!

كما قال تعالى: فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ [الصافات: 90 – 93].

قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59).

أي: فلمَّا رأى المُشرِكونَ حُطامَ أصنامِهم قالوا: مَن فعَلَ هذا بآلهتِنا؟ إنَّه لَمِنَ الظَّالمينَ بصَنيعِه هذا؛ حيثُ فعَل بها ما لا ينبغي له فِعلُه، ووضَعَ الإهانةَ في غيرِ مَوضِعِها؛ فإنَّ الآلهةَ حَقُّها الإكرامُ، لا الإهانةُ والانتِقامُ!!

قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60).

أي: قالوا: سَمِعْنا شابًّا يذكُرُ أصنامَنا بالعَيبِ والنَّقصِ والذَّمِّ يُسَمَّى إبراهيمَ، ومَنْ هذا شأنُه لا بدَّ أن يكونَ هو الذي كَسَّرَها.

قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61).

أي: قال قَومُ إبراهيمَ بَعضُهم لبَعضٍ: فأحضِروا إبراهيمَ على مرأًى مِن النَّاسِ؛ لعلَّهم يَشهَدونَ عُقوبَتَنا له.[55]

---

(55) ممن اختار أنَّ المعنى: يَشْهَدون ما يُصنَعُ به ويحضرونَ عقابَه في الجملة: ابنُ جرير، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/299)، ((تفسير الشوكاني)) (3/488)، ((تفسير القاسمي)) (7/201)، ((تفسير السعدي)) (ص: 526).
وممن قال بهذا القول من السلفِ: ابنُ إسحاقَ.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/299).
وقيل: المعنى: لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ عليه بما نُسِب إليه؛ ليكون ذلك حُجَّةً عليه.
وممن اختار هذا القولَ في الجملةِ: الرسعني، والقرطبي، والخازن، والبقاعي، والعليمي، وابن عاشور.
يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (4/630)، ((تفسير القرطبي)) (11/299)، ((تفسير الخازن)) (3/229)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (12/440)، ((تفسير العليمي)) (4/366)، ((تفسير ابن عاشور)) (17/100).
وممن قال بنحو هذا القولِ من السلفِ: الحسن، والسُّدِّي، وقتادةُ.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/299)، ((تفسير الماوردي)) (3/451).
قال ابنُ عطية: (وقولُه: يَشْهَدُونَ يحتملُ أن يُرادَ به الشهادةُ عليه، يُريدونَ بفعلِه أو بقولِه: لَأَكِيدَنَّ [الأنبياء: 57]. ويحتمِلُ أنْ يُريدَ به المشاهدةَ، أي: يشاهدونَ عقوبتَه أو غلبتَه المؤدية إلى عقوبتِه).
((تفسير ابن عطية)) (4/87).
قال الرازي: (وفيه قولٌ ثالثٌ: وهو قولُ مُقاتِلٍ والكلبيِّ، أنَّ المرادَ مجموعُ الوجهينِ، فيَشهَدونَ عليه بفعلِه، ويَشهَدونَ عقابَه).
((تفسير الرازي)) (22/155).

سورةُ الأنْبياءِ

الآيات (62-70)

قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (63) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (64) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (65) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (67) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (68)

ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (85/3).

اخْتُلِفَ في تفسير قوله: ﴿لعلهم يشهدون﴾ على قولين: الأول: أي: لعلهم يشهدون أنّه هو الذي فعل ما فعل بالآلهة.

الثاني: أي: لعلهم يشهدون عذابه ويعاينونه.

وقد رجَّح ابنُ جرير (١٦/ ٢٩٩) القول الثاني، وانتقد مستندًا لظاهر الآية القولَ الأول، فقال: «وأظهر معنى ذلك: أنهم قالوا: ﴿فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون﴾ عقوبتنا إياه.

لأنه لو أريد بذلك: ليشهدوا عليه بفعله؛ كان يقال: انظروا مَن شهِده يفعل ذلك، ولم يقل: أحضروه بمجمع مِن الناس».

قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ

(70)

غريب الكلمات:

نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ: أي: رجَعوا عن الاعترافِ بالحقّ إلى الباطلِ، وعادوا إلى جهلِهم وعِنادِهم، يُقال: نُكِس المريضُ: إذا خرَج عن مَرضِه، ثمَّ عاد إلى مثلِه، وأصلُ (نكس): يدُلُّ على قَلْبِ الشَّيءِ.

أُفٍّ: هو اسمُ فِعلٍ يُنبئُ عن التضَجُّرِ والاستِثقالِ، أو: صوتٌ يُنبئُ عن ذلك، والأُفُّ: الرَّديءُ مِن الكلامِ، وكلُّ ما غَلُظ منه وقَبُح، وأصلُ (أفف): يَدلُّ على تَكَرُّهِ الشَّيءِ.

تفسير الآيات:

قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62).

أي: فلمَّا أُحضِرَ إبراهيمُ قال له قَومُه: أأنت الذي حطَّمت أصنامَنا التي نَعبُدُها يا إبراهيمُ؟

قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (63).

أي: قال إبراهيمُ لِقَومِه: بل الذي فعَل ذلك هذا الصَّنمُ الكبيرُ، فاسألوا الأصنامَ المكَسَّرة والصَّنمَ الكبيرَ الذي لم يُكَسَّرْ؛ لِيُخبِروكم بمن حطَّمَها إن كانوا يَستطيعونَ الكلامَ![56]

---

(56) أفادت الآثار أنّ قوله تعالى: ﴿بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم﴾ كان كذبة مِن إبراهيم في ذات الله.

وهذا ما رجَّحه ابنُ جرير (١٦/ ٢٩٨ – ٣٠١) وابنُ عطية (٤/ ١٧٧ – ١٧٨) مُستَنِدَين إلى السنة، وذلك في الحديث الذي فيه: «لم يكذب إبراهيم في شيء قط إلا في ثلاث كلهن في الله ...».

وقد نقلا قولًا آخر لم ينسباه لأحد مِن السلف: أنّ ذلك لم يكن مِن إبراهيم كذبًا، وأن المعنى: إن كانت الآلهة المكسورة تنطق فإنّ كبيرهم هو الذي كسرهم.

ووجَّهه ابنُ عطية بقوله: «وفي الكلام تقديم على هذا التأويل في قوله: ﴿فَسْئَلُوهُمْ﴾».

وبيّن ابنُ عطية أنّ أرباب هذا القول وجّهوا قول النبي: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات».

أي: لم يقل كلامًا ظاهره الكذب أو يشبه الكذب.

وانتقد ابنُ جرير هذا القول؛ لخلافه ظاهرَ السنّة، فقال: «وهذا قولٌ خلافُ ما تظاهرت به الأخبارُ عن رسول الله – ﷺ – أنّ إبراهيم لم يكذب إلا ثلاث كذبات، كلها في الله، قوله: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ وقوله: ﴿إني سقيم﴾ [الصافات: ٨٩] وقوله لسارة: هي أختي.

وغير مستحيل أن يكون الله –تعالى ذِكْرُه– أذِن لخليله في ذلك؛ ليقرع قومه به، ويحتج به عليهم، ويعرفهم موضع خطئهم، وسوء نظرهم لأنفسهم، كما قال مُؤَذِّن يوسف لإخوته: ﴿أيتها العير إنكم لسارقون﴾ [يوسف: ٧٠]، ولم يكونوا سرقوا شيئًا».

وذكر ابنُ عطية عن الفرّاء قولًا ثالثًا، فقال: «وذهب الفرّاء إلى جهة أخرى بأن قال: قوله: ﴿فَعَلَهُ﴾ ليس مِن الفعل، وإنما هو فلعلَّه «على جهة التوقع، حذف اللام على قولهم: علَّه بمعنى: لعله، ثم خففت اللام».

وانتقده بقوله: «وهذا تكلُّف».

عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((لم يَكذِبْ إبراهيمُ النبيُّ عليه السَّلامُ قَطُّ إلَّا ثَلاثَ كَذِباتٍ:[57] ثِنتينِ في ذاتِ اللهِ؛ قَولُه: إِنِّي سَقِيمٌ [الصافات: 89]، وقولُه: بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا [الأنبياء: 63]، وواحِدةً في شأنِ سارةَ...)) الحديثَ.[58]

فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (64).

أي: فرَجَعوا إلى أنفسِهم، فقال بعضُهم لِبَعضٍ: إنَّكم أنتم الظَّالِمونَ.

(57) قال ابن تيميَّة: (الكَذِبُ على الشَّخصِ حرامٌ كُلُّه، سواءٌ كان الرجلُ مُسلِمًا أو كافِرًا، برًّا أو فاجرًا ... ولكنْ تُباح عند الحاجةِ الشَّرعيةِ المعاريضُ، وقد تُسمَّى كَذِبًا؛ لأنَّ الكلامَ يعني به المتكَلِّمُ معنًى، وذلك المعنى يريدُ أن يفهمه المُخاطَب، فإذا لم يكنْ على ما يَعنيه فهو الكَذِبُ المحضُ، وإن كان على ما يعنيه ولكِنْ ليس على ما يفهَمُه المخاطَبُ، فهذه المعاريضُ، وهي كَذِبٌ باعتبارِ الإفهامِ، وإن لم تكنْ كَذِبًا باعتبار الغايةِ السَّائغةِ، ومنه قولُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلم: «لم يَكذِبْ إبراهيمُ إلَّا ثلاثَ كَذِباتٍ كُلُّهنَّ في ذاتِ اللهِ...» وهذه الثلاثةُ مَعاريضُ).

((مجموع الفتاوى)) (223/28).

وقال ابنُ القيم: (الكلامُ له نِسبتانِ: نِسبةٌ إلى المتكَلِّم وقَصدِه وإرادتِه، ونسبةٌ إلى السَّامعِ وإفهامِ المتكَلِّم إيَّاه مَضمونَه؛ فإذا أخبَرَ المتكَلِّمُ بخبرٍ مُطابِقٍ للواقعِ، وقَصَد إفهامَ المخاطَبِ؛ فهو صِدقٌ مِن الجِهَتينِ، وإن قَصَد خلافَ الواقعِ، وقَصَد مع ذلك إفهامَ المخاطَبِ خِلافَ ما قَصَد، بل معنًى ثالثًا لا هو الواقِعُ ولا هو المرادُ؛ فهو كَذِبٌ مِن الجِهَتينِ بالنِّسبتَينِ معًا، وإن قَصَد معنًى مطابِقًا صَحيحًا، وقَصَد مع ذلك التَّعميةَ على المخاطَبِ، وإفهامَه خِلافَ ما قَصَده؛ فهو صِدقٌ بالنِّسبةِ إلى قَصْدِه، كَذِبٌ بالنِّسبةِ إلى إفهامِه، ومن هذا البابِ التَّوريةُ والمعاريضُ، وبهذا أُطلِقَ عليها إبراهيمُ الخَليلُ عليه السَّلامُ اسمَ الكَذِبِ، مع أنَّه الصَّادِقُ في خبَرِه، ولم يُخبِرْ إلَّا صِدقًا؛ فتأمَّلْ هذا الموضِعَ الذي أَشكَلَ على النَّاسِ).

((مفتاح دار السعادة)) (36/2).

(58) رواه البخاري (3358)، ومسلم (2371) واللفظ له.

ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (65).

أي: ثم عادُوا إِلَى جهلِهم وعِنادِهم، ورَجَعوا عن الاعترافِ بالحقّ إلى الباطلِ، وإلى المكابرةِ والانتصارِ للأصنامِ، فقالوا: أنت تعلمُ أَنَّ هؤلاءِ الأصنامَ لا تنطِقُ، فكيف تأمرُنا بسؤالِهم، ما تريدُ إِلَّا التَّنَصُّلَ مِن جَريمَتِك![59]

قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66).

---

(59) اختلف السلف في تفسير قوله: ﴿ثم نكسوا على رءوسهم﴾ الآية؛ فقال بعضهم: غُلِبوا على حُجَّتهم؛ فاحتجوا على إبراهيم بما هو حُجَّة له.

وهو قول قتادة وغيره.

وقال بعضهم: ثم نكسوا في الفتنة.

وهو قول السدي.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٦/ ٣٠٣) مستندًا إلى اللغة، والدلالة العقلية القول الأول، وعلَّل ذلك بقوله: «وإنما اخترنا القول الذي قلنا في معنى ذلك لأنّ نكس الشيء على رأسه: قلبه على رأسه، وتصيير أعلاه أسفله.

ومعلومٌ أنّ القوم لم يُقْلَبوا على رءوس أنفسهم، وأنهم إنما نكست حجتهم، فأُقِيم الخبر عنهم مقام الخبر عن حُجَّتهم.

وإذ كان ذلك كذلك فنكس الحجة لا شك إنما هو احتجاج المحتج على خصمه بما هو حجة لخصمه».

ووافقه ابنُ كثير (٩/ ٤١٥) مستندًا إلى ظاهر الآية، فقال: «وقول قتادة أظهر في المعنى؛ لأنهم إنما فعلوا ذلك حيرة وعجزًا؛ ولهذا قالوا له: ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾، فكيف تقول لنا: سَلُوهم إن كانوا ينطقون، وأنت تعلم أنها لا تنطق؟! فعندها قال لهم إبراهيم لَمّا اعترفوا بذلك: ﴿أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم﴾ أي: إذا كانت لا تنطق، وهي لا تضر ولا تنفع، فلِم تعبدونها من دون الله؟!».

ثم انتقد (١٦/ ٣٠٣) ابنُ جرير مستندًا إلى الدلالة العقلية القولَ الثاني، فقال: «وأما قول السدي: ثم نكسوا في الفتنة. فإنهم لم يكونوا خرجوا مِن الفتنة قبل ذلك فنكسوا فيها!».

أي: قال إبراهيمُ مُوَبِّخًا لِقومِه ومُنكِرًا عليهم: أفتَعبُدونَ أصنامًا لا تنفعُكم شيئًا فترجونَها، ولا تَضُرُّكم شيئًا فتَخشَونَها؟ وقد عَلِمتُم أنَّها لم تمنَعْ نفسَها ممَّن أرادها بسوءٍ، ولا تقدِرُ أن تنطِقَ إن سُئِلَت عمَّن يأتيها بسوءٍ فتُخبِرَ به، فلِمَ تَعبُدونَ ما كان هكذا؟!

أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (67).

أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

أي: قال إبراهيمُ لِقَومِه: قُبْحًا لكم ولأصنامِكم، وما أخسَّكم أنتم وما تَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ!

أَفَلَا تَعْقِلُونَ.

أي: أفليست لكم عُقولٌ تُدرِكونَ بها قُبحَ ما تفعَلونَ مِن عبادتِكم أصنامًا لا تنفَعُ ولا تضُرُّ، ولا تستَحِقُّ العبادةَ؛ فتَتركوا عبادتَها، وتَعبُدوا اللهَ الذي بِيَدِه النَّفعُ والضُّرُّ؟!

قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آَلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (68).

أي: قال المُشرِكونَ: حَرِّقوا إبراهيمَ بالنَّارِ؛(60) انتقامًا لأصنامِكم المحطَّمةِ إنْ كنتُم لها ناصرينَ.

(60) قال ابنُ عطية (٦/ ١٨٠): «وقد أكثر الناسُ في قصص حرق إبراهيم، وذكروا تحديد مدة بقائه في النار وصورة بقائه فيها، مما رأيتُ اختصاره؛ لقلة صحته، والصحيح من ذلك أنه ألقي في النار، فجعلها الله تعالى عليه بردًا وسلامًا، فخرج منها سالمًا، وكانت أعظم آية».

قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69).

أي: فأوقَدوا له نارًا لِيَحرِقوه، فلمَّا ألقَوا إبراهيمَ فيها قُلْنا لها: يا نارُ، كوني بردًا وسلامًا على إبراهيمَ. فأنجاه اللهُ منها، لم يَنَلْه فيها أذًى، ولا أحسَّ بمكروهٍ.

كما قال تعالى: فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [العنكبوت: 24].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: ((حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ قالها إبراهيمُ عليه السَّلامُ حينَ أُلقِي في النَّارِ، وقالها مُحمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم حينَ قالوا: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ [آل عمران: 173])).(61)

وعن أُمِّ شَريكٍ رَضِي اللَّهُ عنها: ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أمَر بقتلِ الوَزَغِ،(62) وقال: كان يَنفُخُ(63) على إبراهيمَ عليه السَّلامُ)).(64)

وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (70).

---

(61) أخرجه البخاري (4563).

(62) الوَزَغُ: جمعُ الوَزَغةِ: نوعٌ من السَّحالي الصَّغيرة، وهي التي يُقالُ لها: سامٌّ أبرَص.

يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (181/5)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) لأحمد مختار عمر (190/1).

(63) كان ينفُخُ: أي: النارَ.

يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (350/5).

(64) أخرجه البخاري (3359).

أي: وأراد المُشرِكونَ أن يَكيدوا بإبراهيمَ(65) فخاب سَعيُهم، ولم يحصُلْ لهم مُرادُهم، وجعَلَهم اللهُ هم المغلوبينَ الهالكينَ.(66)

كما قال تعالى: قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ [الصافات: 97، 98].

---

(65) قيل: المرادُ بذلك: ما سبَق مِن إلقائِهم له في النَّارِ، حيثُ عزَموا على إحراقِه.

وممن قال بذلك: السعدي، وابن عاشور، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 527)، ((تفسير ابن عاشور)) (107/17)، ((أضواء البيان)) (163/4).

وقيل: المراد: أرادوا به مكرًا آخَرَ بعد خروجِه من النار.

وممن قال بذلك: البقاعي.

يُنظر: ((نظم الدرر)) (446/12).

(66) وقال الشنقيطي: (وجعْلُه تعالى إيَّاهم الأخسرينَ، أي: الذين هم أكثَرُ خُسرانًا؛ لِبُطلانِ كَيدِهم، وسلامتِه مِن نارِهم. وقد أشار تعالى إلى ذلك أيضًا في سورة «الصافات» في قولِه تعالى: فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ، وكونُهم الأسفلينَ واضِحٌ؛ لعُلُوِّه عليهم، وسلامتِه مِن شَرِّهم، وكونُهم الأخسرينَ؛ لأنَّهم خَسِروا الدُّنيا والآخرةَ، ذلك هو الخُسرانُ المبينُ).

((أضواء البيان)) (163/4).

سورةُ الأنْبياءِ

الآيات (71–75)

وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (71) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (72) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (73) وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (74) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (75)

غريب الكلمات:

نَافِلَةً: أي: زيادةً وفَضلًا، وأصلُ (نفل): يدُلُّ على عَطاءٍ.

تفسير الآيات:

وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (71).

أي: ونجَّينا إبراهيمَ ولوطًا مِن أعدائِهما الكافِرينَ، فأخرَجْناهما إلى الأرضِ التي بارَكْنا فيها للعالَمينَ.[67]

---

(67) قال ابن جرير: (لا خِلافَ بين جميع أهل العِلمِ أنَّ هِجرةَ إبراهيمَ مِن العراقِ كانت إلى الشام، وبها كان مُقامُه أيام حياتِه).

((تفسير ابن جرير)) (315/16).

ونسب الشنقيطي القول بأنها أرض الشام إلى الجمهور.

يُنظر: ((أضواء البيان)) (165/4).

وقيل: المراد بقوله: الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ: بيت المقدس.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (305/11).

قال ابن عاشور: (والأرض: هي أرضُ فلسطين).

((تفسير ابن عاشور)) (108/17).

وذكر ابنُ كثيرٍ أنَّ المرادَ: الأرضُ المقدسةُ مِن بلادِ الشامِ.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (353/5).

وقال القرطبي: (وقيل لها: مُباركةٌ؛ لكثرةِ خِصبِها وثمارِها وأنهارِها، ولأنَّها معادِنُ الأنبياءِ).

((تفسير القرطبي)) (305/11).

ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (165/4).

وقال ابن عاشور: (وصَفَها الله بأنَّه باركها للعالَمينَ، أي: للنَّاسِ، يعني السـاكنينَ بها؛ لأنَّ الله خلقها أرضَ خِصبٍ ورخاءِ عَيشٍ، وأرضَ أمنٍ).

((تفسير ابن عاشور)) (108/17).

اختلف السلف في الأرض التي نجا الله إبراهيم ولوطًا إليها على قولين: الأول: أنها الشام.

الثاني: أنها مكة.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٦/ ٣١٥) مستندًا إلى الإجماع القولَ الأول، مُعَلِّلًا ذلك بقوله: «وإنما اخترنا ما اخترنا من القول في ذلك لأنه لا خلاف بين جميع أهل العلم أن هجرة إبراهيم من العراق كانت إلى الشـام، وبها كان مقامه أيام حياته، وإن كان قدم مكة، وبنى بها البيت، وأسـكنها إسماعيل ابنه مع أمه هاجر غير أنه لم يقم بها، ولم يتخذها وطنًا لنفسـه، ولا لوط. والله إنما أخبر عن إبراهيم ولوط أنه أنجاهما إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين».

كما قال تعالى: فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي [العنكبوت: 26].

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (72).

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً.

أي: وأعْطَينا إبراهيمَ ابنَه إسحاقَ، وأعْطَيناه حَفيدَه يَعقوبَ بنَ إسحاقَ زيادةً، وفَضلًا منَّا.[68]

---

(68) وممن قال بأنَّ المرادَ بالنافلةِ: يعقوبُ عليه السلامُ: مقاتل بن سليمان، والزجاج، والسمرقندي، والواحدي، والسمعاني، والقرطبي، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ القيم، واختاره النيسابوري، والشوكانيُّ.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (86/3)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (398/3)، ((تفسير السمرقندي)) (432/2)، ((الوسيط)) للواحدي (245/3)، ((تفسير السمعاني)) (392/3)، ((تفسير القرطبي)) (305/11)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (312/1)، ((تفسير النيسابوري)) (34/5)، ((تفسير الشوكاني)) (491/3).

قال القرطبي: (قوله تعالى: وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً أي: زيادةً؛ لأنَّه دعا في إسحاقَ، وزِيدَ يعقوبَ مِن غيرِ دعاءٍ، فكان ذلك نافِلةً، أي: زيادةً على ما سأل؛ إذ قال: رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ [الصافات: 100] .

ويُقالُ لوَلَدِ الوَلَدِ نافِلةٌ؛ لأنَّه زيادةٌ على الوَلَدِ).

((تفسير القرطبي)) (305/11).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس، وقتادةُ، وابنُ زيد، والحكمُ بنُ عُتَيْبَةَ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (315/16)، ((تفسير ابن الجوزي)) (201/3)، ((تفسير ابن كثير)) (353/5).

ومِمَّن قال بأنَّ كُلًّا من إسحاقَ ويَعقوبَ كان نافلةً لإبراهيمَ: ابن عطية -وهو الظاهرُ مِن اختيارِه-، والرازي، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (90/4)، ((تفسير الرازي)) (160/22)، ((تفسير ابن عاشور)) (108/17، 109).

قال الرازي: (لأنَّه تعالَى جَمَع بينَهما، ثُمَّ ذَكَر قولَه: نَافِلَةً، فإذا صَلُحَ أنْ يكونَ وصفًا لهما فهو أولَى).

((تفسير الرازي)) (160/22).

وقال ابن عاشور: (النافلةُ: الزيادةُ غيرُ الموعودةِ؛ فإنَّ إبراهيمَ سأل ربَّه، فقال: رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ [الصافات: 100] ، أراد الوَلَدَ، فوُلِدَ له إسماعيلُ، ثمَّ وُلِدَ له إسحاقُ عن غيرِ مسألةٍ،كما في سورةِ «هودٍ»، فكان نافلةً، ووُلِدَ لإسحاقَ يعقوبُ، فكان أيضًا نافلةً).

((تفسير ابن عاشور)) (108/17، 109).

وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: عطاءٌ، ومجاهدٌ.

كما قال تعالى: فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا

[مريم: 49].

وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (316/16)، ((تفسير ابن الجوزي)) (201/3).

قال ابن جرير: (النافلةُ: الفَضلُ مِن الشَّيءِ يَصيرُ إلى الرجُلِ مِن أيِّ شَيءٍ كان ذلك، وكِلَا ولَدَيه إسحاقَ ويعقوبَ كان فضلًا من اللهِ، تفضَّلَ به على إبراهيمَ، وهِبَةً منه له.

وجائزٌ أن يكون عنى به أنَّه آتاهما إيَّاه جميعًا نافلةً منه له، وأن يكونَ عنى أنَّه آتاه نافلةً يَعقوبَ، ولا بُرهانَ يدُلُّ على أيِّ ذلك المرادُ مِن الكلامِ، فلا شيءَ أَولى أن يقالُ في ذلك ممَّا قال الله: ووَهَبَ اللهُ لإبراهيمَ إسحاقَ ويَعقوبَ نافِلةً).

((تفسير ابن جرير)) (317/16).

وقال الشنقيطي: (قَولُه: نَافِلَةً فيه وجهانِ مِن الإعرابِ، فعلى قَولِ مَن قال: النَّافِلةُ: العَطِيَّةُ، فهو ما ناب عن المُطلَقِ مِن «وَهَبْنَا» أي: وهَبْنا له إسحاقَ ويَعقوبَ هِبةً.

وعليه النَّافِلةُ: مَصدَرٌ جاء بصيغةِ اسمِ الفاعِلِ، كالعاقِبةِ والعافيةِ.

وعلى أنَّ النافلةَ بمعنى الزِّيادةِ، فهو حالٌ مِن «يَعْقُوبَ» أي: وهبنا له يَعقوبَ في حالِ كَونِه زيادةً على إسحاقَ).

((أضواء البيان)) (166/4).

اختلف السلف فيمن عنى الله بقوله: ﴿نافلة﴾؛ فقيل: هو يعقوب خاصة.

وقيل: هو إسحاق ويعقوب معًا.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٦/ ٣١٧ بتصرف) مستندًا إلى ظاهر الآية أنّ كلا القولين جائز، فقال: «والنافلة هي الفضل من الشيء يصير إلى الرجل مِن أيِّ شيء كان ذلك، وكلا ولديه إسحاق ويعقوب كان فضلًا من الله، تَفَضَّل به على إبراهيم، وهِبَةً منه له.

وجائز أن يكون عنى به أنّه آتاهما إياه جميعًا نافلة منه له، وأن يكون عنى أنه آتاه نافلة يعقوب، ولا برهان يدلُّ على أيِّ ذلك المراد مِن الكلام، فلا شيء أولى أن يُقال في ذلك ممّا قال الله، ووهب الله لإبراهيم إسحاق ويعقوب نافلة».

ورجّح ابنُ عطية (٦/ ١٨٢) القول الثاني، فقال: «والنافلة: العطية، كما تقول: نفَّلني الإمام كذا، ونافلة الطاعة كأنها عطية من الله تعالى لعباده يثيبهم عليها.

وقالت فرقة: الموهوب إسْحاق، والنافلة يَعْقُوب.

والأول أبين».

لم يذكر مستندًا.

أي: وكُلًّا من إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعقوبَ جعَلْنا طائِعينَ لله، مُجتَنِبينَ محارِمَ اللهِ.

وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (73).

وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا.

أي: وجعَلْنا إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعقوبَ أئمَّةً يَقتَدي بهم النَّاسُ في طاعةِ اللهِ، ويَدْعونَ النَّاسَ بأمْرِنا[69] إلى عبادةِ اللهِ، واتِّباعِ أمْرِه، واجتنابِ نَهْيِه.

وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ.

---

(69) قوله: بِأَمْرِنَا قيل: معناه: بأمرِ الله إيَّاهم بذلك.
ومن اختاره: ابنُ جرير، والرسعني.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (317/16)، ((تفسير الرسعني)) (641/4).
وقيل: بِأَمْرِنَا أي: بإذننا.
ومن اختار هذا المعنى: ابنُ جُزي، وابنُ كثير، والقاسمي.
يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (25/2)، ((تفسير ابن كثير)) (354/5)، ((تفسير القاسمي)) (205/7).
وقيل: معنى بِأَمْرِنَا أي: بما أنزَلْنا عليهم مِن الوحيِ.
وممن قال بذلك: القرطبي، والشوكاني.
يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (305/11)، ((تفسير الشوكاني)) (491/3).
قال القرطبي: (ومعنى بِأَمْرِنَا: أي: بما أنزَلْنا عليهم مِن الوحيِ والأمرِ والنَّهيِ، فكأنَّه قال: يَهْدونَ بكتابِنا).
((تفسير القرطبي)) (305/11).

أي: وأوحَينا إلى إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعقوبَ أن يفعَلوا هم وقومُهم الطَّاعاتِ، ويُقيموا الصَّلاةَ، ويُؤتُوا الزَّكاةَ.

وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ.

أي: وكانوا لنا طائِعينَ بإخلاصٍ وذُلٍّ وخُضوعٍ وخُشوعٍ، يَفعَلونَ ما يأمُرونَ النَّاسَ به، ويجتَنِبونَ ما يَنهونَهم عنه.

وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (74).

وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا.

أي: وآتَينا لوطًا النبُوَّةَ، وآتيناه عِلمًا عَظيمًا في شريعتِه، وفَهمًا ومعرفةً بأمرِ دينِه، وما يقَعُ به الحُكمُ بين الخُصومِ.(70)

---

(70) ممن اختار أنَّ المرادَ بالحكمِ النبوةُ: السمرقندي، وابنُ أبي زمنين، والرسعني، والقرطبي، والشوكاني، والشنقيطي.
يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (433/2)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (153/3)، ((تفسير الرسعني)) (641/4)، ((تفسير القرطبي)) (306/11)، ((تفسير الشوكاني)) (491/3)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (168/4).
وممن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: حُكْمًا أي: فصلَ القضاءِ بينَ الخصومِ: ابن جرير، والثعلبي، والبغوي، وابن عطية، والخازن، وجلال الدين المحلي.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (318/16)، ((تفسير الثعلبي)) (284/6)، ((تفسير البغوي)) (297/3)، ((تفسير ابن عطية)) (90/4)، ((تفسير الخازن)) (232/3)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 427).
قال القرطبي: (العلمُ: المعرفةُ بأمرِ الدِّينِ، وما يقعُ به الحكمُ بينَ الخصومِ).

وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ.

أي: ونجَّينا لوطًا مِن أهلِ القَريةِ الذين كانوا يفعَلونَ الأفعالَ الشَّنيعةَ القبيحةَ؛ كالكُفرِ، وإتيانِ الذُّكورِ، وغيرِ ذلك، فأخرَجْناه منها، ولم يُصِبْه ما أصابَهم مِن العذابِ والهلاكِ.(71)

إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ.

أي: وذلك لأنَّهم كانوا أصحابَ عملٍ سَيِّئٍ، خارجينَ عن طاعةِ الله.

((تفسير القرطبي)) (306/11).

(71) قال الشنقيطي: (والخبائثُ التي كانت تعملُها جاءت موضَّحةً في آياتٍ مِن كتاب الله: منها: اللِّواطُ، وأنَّهم هم أوَّلُ مَن فعلَه مِن الناسِ، كما قال تعالى: أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ [الأعراف: 80] ، وقال: أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ [الشعراء: 165، 166].

ومن الخبائث المذكورةِ: إتيانُهم المنكَرَ في ناديهم، وقَطْعُهم الطريقَ، كما قال تعالى: أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ [العنكبوت: 29].

ومن أعظم خبائثِهم: تكذيبُ نبيِّ الله لوطٍ، وتهديدُهم له بالإخراجِ مِن الوطَنِ، كما قال تعالى عنهم: قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ [الشعراء: 167]، وقال تعالى: فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ [النمل: 56] إلى غيرِ ذلك من الآياتِ).

((أضواء البيان)) (168/4).

وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (75).

وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا.

أي: وأدخَلْنا لوطًا في رَحمَتِنا بإنجائِنا له مِن عذابِ قَومِه في الدُّنيا، وبإدخالِه الجنَّةَ في الآخِرةِ.

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((احتَجَّت النَّارُ والجنَّةُ، فقالت هذه: يَدخُلُني الجبَّارونَ والمتكبِّرون، وقالت هذه: يدخُلُني الضُّعَفاءُ والمساكينُ. فقال اللهُ عَزَّ وجَلَّ لهذه: أنتِ عذابي أعَذِّبُ بكِ مَن أشاءُ -وربما قال: أصيبُ بكِ مَن أشاءُ، وقال لهذه: أنتِ رحمتي أرحَمُ بكِ من أشاءُ، ولكُلِّ واحدةٍ منكما مِلؤُها)).[72]

إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ.

أي: أدخَلْناه في رَحمتِنا؛ لأنَّه من الأنبياءِ الطَّائعينَ للهِ، العامِلينَ بوَحيِ اللهِ، المُستَقيمينَ على أمرِ اللهِ ونَهْيِه.

---

(72) رواه البخاري (4850)، ومسلم (2846) واللفظ له.

سورةُ الأنْبياءِ

الآيتان (76–77)

وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (77)

غريب الكلمات:

الْكَرْبِ: أي: الغمِّ الشَّديدِ، وما حَلَّ بالمكذِّبينَ من الطُّوفانِ والغَرَقِ، وأصلُ (كرب): يدُلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ.

تفسير الآيتين:

وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76).

وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- نوحًا حينَ دعا ربَّه -مِن قَبلِ إبراهيمَ ولوطٍ- أن يَنصُرَه اللهُ على قَومِه الكافرينَ، وأن يُهلِكَهم.

كما قال تعالى: قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [الشعراء: 117- 118].

وقال سُبحانَه: وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ [الصافات: 75].

وقال عزَّ وجلَّ: فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ [القمر: 10].

وقال سُبحانَه: وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا [نوح: 26].

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ.

أي: فاستجَبْنا لنوحٍ دُعاءَه، فأغرَقْنا قَومَه الكافرينَ، ونجَّيناه معَ أهلِه المؤمنينَ مِن الغَمِّ الشَّديدِ.(73)

---

(73) قيل: المرادُ بالكربِ العظيمِ: الطوفانُ الذي أغرق قومَ نوحٍ.

وممن قال بذلك: ابنُ جريرٍ، والقرطبيُّ، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (319/16)، ((تفسير القرطبي)) (306/11)، ((تفسير ابن عاشور)) (113/17).

وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (77).

وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا.

أي: ونجَّينا نوحًا وحَميناه مِن قَومِه الذين كذَّبوا بحُجَجِنا الدَّالَّةِ على رِسالتِه، فلا ينالونَه بسوءٍ.

إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ.

أي: نصَرْنا نوحًا، وأهلَكْنا قَومَه؛ لأنَّهم كانوا قومًا يُسيئُونَ أعمالَهم بالشِّرْكِ والكُفرِ، وتَكذيبِ الرَّسولِ، ومَعصيةِ اللهِ، فأغرَقْناهم كُلَّهم؛ كبيرَهم وصَغيرَهم.

ومِمَّن قال بنحو هذا القولِ مِن السلفِ: السُّدِّي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (19/560).

قال ابن عاشور: (الكَربُ العَظيمُ: هو الطوفانُ.

والكربُ: شِدَّةُ حُزنِ النَّفسِ بسَبَبِ خَوفٍ أو حُزنٍ.

ووجهُ كَونِ الطوفانِ كَربًا عَظيمًا: أنَّه يَهولُ النَّاسَ عندَ ابتدائِه وعندَ مَدِّه، ولا يزال لاحِقًا بمواقعِ هُروبِهم حتى يَعُمَّهم، فيَبقَوا زمنًا يذوقونَ آلامَ الخَوفِ فالغَرقِ، وهم يَغرَقونَ ويَطفُونَ حتى يموتوا بانحباسِ التنَفُّسِ، وفي ذلك كُلِّه كَربٌ مُتكَرِّرٌ؛ فلذلك وُصِفَ بالعَظيمِ).

((تفسير ابن عاشور)) (17/113).

وقيل معنى قوله: مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ أي: مِن الشدَّةِ والتكذيبِ والأذى.

ومِمَّن قال بذلك: ابنُ كثيرٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (5/354).

ومِمَّن جمع بين القولين: الزمخشريُّ، والرسعني، والعليمي.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (3/128)، ((تفسير الرسعني)) (4/642)، ((تفسير العليمي)) (4/375).

ومِمَّن قال مِن السلفِ: إن المرادُ بالكربِ العظيمِ: الغرقُ وتكذيبُ قومِه: ابنُ عباس.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (3/202).

كما قال تعالى: فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ [الأعراف: 64].

وقال سُبحانَه: وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ [الذاريات: 46].

سورةُ الأنْبياءِ

الآيات (78–80)

وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (78) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (79) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (80)

غريب الكلمات:

الْحَرْثِ: أي: الزَّرعِ، أو البُستانِ، وأصْلُ (حرث): يدُلُّ على إلقاءِ البَذرِ في الأرضِ، وتَهيئتِها للزَّرعِ.

نَفَشَتْ: أي: رعَتْ لَيلًا، والنَّفشُ: الرَّعيُ باللَّيلِ، وأصلُ (نفش): يدُلُّ على انتشارٍ.

لَبُوسٍ: أي: الدُّروعِ، سُمِّيت لَبُوسًا؛ لأنَّها تُلبَسُ، واللَّبوسُ عندَ العَرَبِ: السِّلاحُ كُلُّه، وأصلُ (لبس): يدُلُّ على مُخالَطةٍ ومُداخَلةٍ.

لِتُحْصِنَكُمْ: أي: لِتَمنَعَكم وتَحمِيَكم، وأصلُ (حصن): يدلُّ على حِفظٍ وحِياطةٍ.

بَأْسِكُمْ: أي: حَرْبِكم، وأصلُ (بأس): يدُلُّ على الشِّدَّةِ وما ضاهاها.

تفسير الآيات:

وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (78).

وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ-[(74)] خبرَ داودَ وسُلَيمانَ حينَ يَحكُمانِ[(75)] في شأنِ الزَّرعِ أو الغَرسِ[(76)] الذي انتَشَرَت فيه غَنَمُ قومٍ آخرينَ في اللَّيلِ، فرَعَت في البُستانِ وأكَلَت ما في أشجارِه.

---

(74) ممَّن ذهب إلى هذا التقديرِ: ابنُ جريرٍ، والقرطبيُّ، والسعدي.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (320/16)، ((تفسير القرطبي)) (307/11)، ((تفسير السعدي)) (ص: 528).
قال ابن عطية: (ويحتمِلُ عندي ويَقوَى أن يكونَ المعنى: وآتينا داودَ، عطفًا على قولِه تعالى: وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا [الأنبياء: 74]، والمعنى على هذا التأويلِ مُتَّسِقٌ).
((تفسير ابن عطية)) (90/4).
واختاره ابن عاشور في ((تفسيره)) (115/17).
(75) قال القرطبي: (لم يُرِدْ بقولِه: إِذْ يَحْكُمَانِ الاجتماعَ في الحُكمِ وإن جمَعَهما في القولِ؛ فإنَّ حُكمَينِ على حُكمٍ واحدٍ، لا يجوزُ، وإنَّما حكَمَ كُلُّ واحدٍ منهما على انفرادِه، وكان سليمانُ الفاهِمَ لها بتفهيمِ الله تعالى إيَّاه).
((تفسير القرطبي)) (307/11).
نقل ابنُ عطية (٦/ ١٨٤) عن فرقة أن حكم داود وسليمان كان بوحي، فنسخ الله بحكم سليمان حكم داود، فقال: «وذهبت فرقةٌ إلى أن هذه النازلة لم يكن الحكم فيها باجتهاد، وإنما حَكَم داود بوحي، وحَكَم سليمان بوحي نسخ الله تعالى به حُكْم داود، وجعلت فرقة ومنها ابن فورك قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ﴾ أي: فَقَّهناه القضاء الفاصل الناسخ الذي أراد الله -تبارك وتعالى- أن يستقر في النازلة».
وانتقد ذلك بقوله: «وتحتاج هذه الفرقةُ في هذه اللفظةِ إلى هذا التعب، ويبقى لها المعنى قَلِقًا».
(76) قال ابن جرير: (الحرثُ: إنما هو حَرثُ الأرضِ.
وجائزٌ أن يكون ذلك كان زرعًا، وجائز أن يكون غرْسًا، وغيرُ ضائرٍ الجَهلُ بأي ذلك كان).

وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ.

أي: وكنا لحُكمِ داودَ وسُلَيمانَ والمُتحاكِمين إليهما عالِمينَ لا يخفَى علينا شيءٌ.(77)

((تفسير ابن جرير)) (321/16).

وقال ابن القيم: (الحَرْثُ: هو البستان، وقد رويَ أنه كان بستانَ عِنَبٍ، وهو المسمَّى بالكَرْمِ).

((إعلام الموقعين)) (245/1).

ونسَب الواحدي القولَ بأنَّ الحرثَ كان كَرْمًا قد نبَتتْ عناقيدُه إلى أكثرِ المفسرينَ، وقال: (وهو قولُ ابنِ مسعودٍ، ومسروقٍ ومَعْمَرٍ، وشُرَيحٍ، وابنِ عباسٍ في روايةِ عطاءٍ).

((البسيط)) (132/15).

ونسَب الرازي إلى أكثرِ المفسِّرينَ أنَّ الحرثَ هو الزَّرعُ.

يُنظر: ((تفسير الرازي)) (164/22).

وقال البقاعي: (يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ الذي أنبَت الزرعَ، وهو مِن إطلاقِ اسمِ السببِ على المسبِّبِ، كالسماءِ على المطرِ والنبتِ).

((نظم الدرر)) (453/12).

(77) قال ابن الجوزي: (وفي المشارِ إليه قولان: أحدُهما: داودُ وسليمانُ، فذكرهما بلَفظِ الجمعِ؛ لأنَّ الاثنينِ جمعٌ، هذا قول الفرَّاء.

والثاني: أنهم داود وسليمانُ والخصومُ، قاله أبو سليمان الدمشقي).

((تفسير ابن الجوزي)) (202/3).

وممَّن قال بالقولِ الأوَّلِ: الفرَّاءُ، ويحيى بنُ سلام، والقرطبي، وجلال الدين المحلي، والعُليمي، والشوكاني.

يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (208/2)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (328/1)، ((تفسير القرطبي)) (307/11)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 428)، ((تفسير العليمي)) (376/4)، ((تفسير الشوكاني)) (493/3).

وممَّن قال بالقول الثاني: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جرير، ومكي، والزمخشري، وابنُ عطية، والبيضاوي، والنسفي، وابن جزي، وأبو حيان، والبقاعي، والقاسمي، وابن عاشور.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (87/3)، ((تفسير ابن جرير)) (321/16)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (4786/7)، ((تفسير الزمخشري)) (128/3)، ((تفسير ابن عطية)) (93/4)، ((تفسير البيضاوي)) (57/4)، ((تفسير النسفي)) (414/2)، ((تفسير ابن جزي)) (26/2)، ((تفسير أبي حيان)) (455/7)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (454/12)، ((تفسير القاسمي)) (207/7)، ((تفسير ابن عاشور)) (118/17).

قال ابنُ عطية: (وقوله تعالى: لِحُكْمِهِمْ يريدُ: داودَ وسليمانَ والخصمينِ؛ لأنَّ الحكمَ يُضافُ إلى جميعِهم، وإن اختَلفت جهاتُ الإضافةِ).

فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (79).

فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ.

أي: ففهَّمْنا تلك القضيَّةَ سُلَيمانَ.[78]

وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا.

أي: وكلًّا مِن داودَ وسُلَيمانَ آتَينا نُبُوَّةً، وعِلمًا بدينِ اللهِ وأحكامِه.[79]

((تفسير ابن عطية)) (93/4).

ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (164/22).

وقال أبو حيان: (والضَّميرُ في لِحُكْمِهِمْ عائدٌ على الحاكمينِ والمحكومِ لهما وعليهما، وليس المصدرُ هنا مُضافًا إلى فاعلٍ ولا مفعولٍ، ولا هو عاملٌ في التَّقديرِ...

وكأنَّ المعنَى: وكنَّا للحكمِ الَّذي صَدَر في هذه القضيَّةِ شاهِدين).

((تفسير أبي حيان)) (455/7).

(78) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (321/16)، ((الوسيط)) للواحدي (246/3)، ((تفسير ابن عاشور)) (118/17).

قال السعدي: (قضى فيه داودُ عليه السلامُ بأنَّ الغَنَمَ تكون لصاحِبِ الحرث؛ نظرًا إلى تفريطِ أصحابها، فعاقَبَهم بهذه العقوبةِ، وحكم فيها سُلَيمانُ بحُكمٍ مُوافِقٍ للصواب؛ بأنَّ أصحابَ الغَنَمِ يَدفَعونَ غَنَمَهم إلى صاحِبِ الحَرثِ فينتَفِعُ بدَرِّها وصوفِها، ويقومونَ على بستانِ صاحِبِ الحَرثِ حتى يعودَ إلى حاله الأولى، فإذا عاد إلى حالِه ترادَّا ورجع كلٌّ منهما بما له، وكان هذا من كمالِ فَهمِه وفِطنتِه عليه السَّلامُ؛ ولهذا قال تعالى: فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ أي: فهَّمْناه هذه القضيَّةَ، ولا يدُلُّ ذلك أنَّ داود لم يُفَهِّمْه اللهُ في غيرِها).

((تفسير السعدي)) (ص: 528).

ويُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (245/1، 246).

(79) قال ابنُ عطية (٦/ ١٨٨): «وقوله تعالى: ﴿وكلا آتينا حكما وعلما﴾ تأوَّل قومٌ منه أنّ داود لم يخطئ في هذه النازلة، بل فيها أُوتِي الحكم والعلم.

وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ.

أي: وذلَّلْنا مع داودَ الجِبالَ والطَّيرَ يُسَبِّحْنَ[80] بمِثلِ تَسبيحِه إذا سَبَّحَ؛ مُعجِزةً له،[81] وكُنَّا فاعلينَ ذلك.[82]

كما قال تعالى: وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ [سبأ: 10].

وقالت فرقة: بل لأنّه لم يُصِبِ العين المطلوبة في هذه النازلة؛ مدحه الله تعالى بأنّ له حكمًا وعلمًا يرجع إليه في غير هذه النازلة».

(80) قال الشنقيطي: (التحقيقُ: أنَّ تسبيحَ الجبالِ والطَّيرِ -مع داودَ- المذكورَ تسبيحٌ حَقيقيٌّ؛ لأنَّ اللهَ جلَّ وعلا يجعَلُ لها إدراكاتٍ تُسَبِّحُ بها، يعلَمُها هو جلَّ وعلا، ونحن لا نعلَمُها، كما قال تعالى: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ [الإسراء: 44] ، وقال تعالى: وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ [البقرة: 74]).

((أضواء البيان)) (4/231، 232).

(81) قال ابنُ كثير: (قولُه: وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ؛ وذلك لِطِيبِ صَوتِه بتلاوةِ كتابِه الزَّبورِ، وكان إذا ترنَّم به تقِفُ الطيرُ في الهواءِ، فتُجاوِبُه، وترُدُّ عليه الجبالُ تأويبًا).

((تفسير ابن كثير)) (5/358).

ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 528).

(82) قال ابن جرير: (قوله: وَكُنَّا فَاعِلِينَ يقولُ: وكنَّا قد قضَينا أنَّا فاعِلو ذلك، ومُسَخِّرو الجبالِ والطيرِ في أمِّ الكتابِ مع داودَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ).

((تفسير ابن جرير)) (16/328).

وقال البقاعي: (أي: مِن شأنِنا الفِعلُ لأمثالِ هذه الأفاعيلِ، ولكُلِّ شَيءٍ نريدُه بما لنا مِنَ العَظَمةِ المحيطةِ؛ فلا تَستكثِروا علينا أمرًا وإن كان عندكم عَجَبًا).

((نظم الدرر)) (12/456).

وقال الشنقيطيُّ: (والظَّاهِرُ أنَّ قولَه: وَكُنَّا فَاعِلِينَ مُؤَكِّدٌ لِقَولِه: وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ، والموجِبُ لهذا التأكيدِ أنَّ تسخيرَ الجبالِ وتَسبيحَها أمرٌ عَجَبٌ خارِقٌ للعادة، مَظِنَّةٌ لأن يُكَذِّبَ به الكَفَرةُ الجَهَلةُ!).

((أضواء البيان)) (4/232).

وقال سُبحانَه: وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ [ص: 17 – 19].

وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (80).

وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ.

أي: وعلَّمْنا داودَ كيفيَّةَ صِناعةِ الدُّروعِ لكم؛ لِتَقيَكم في القتالِ مِن سلاحِ أعدائِكم.

كما قال تعالى: وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ [النحل: 81].

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: لِتُحْصِنَكُمْ قراءاتٌ:

1– قراءةُ لِتُحْصِنَكُمْ بتاءٍ مَضمومةٍ، على التأنيثِ، أي: لِتُحصِنَكم هذه الصَّنعةُ.(83)

2– قراءةُ لِنُحْصِنَكُم بنونٍ مضمومةٍ، على أنَّ اللهَ تعالى يخبِرُ عن نَفسِه، أي: لِنُحصِنَكم نحنُ من بأسِكم بواسطةِ هذه الدُّروعِ.(84)

---

(83) قرأ بها ابنُ عامر، وحفصٌ عن عاصمٍ، وأبو جعفرٍ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/324).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (16/329)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 250)، ((معاني القراءات)) للأزهري (2/168).

(84) قرأ بها شعبةُ عن عاصمٍ، ورُويسٌ عن يعقوب.

3- قراءة لِيُحْصِنَكُم بياءٍ مَضمومةٍ، على التذكيرِ، أي: لِيُحصِنَكم الله تعالى، أو: ليحصِنَكم هذا اللَّبوسُ.(85)

فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ.

أي: فهل أنتم -أيُّها النَّاسُ- شاكِرو اللهِ على تيسيرِه لكم نِعمةَ الدُّروعِ؟

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/324).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (16/329)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 250)، ((معاني القراءات)) للأزهري (2/168)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 469).

(85) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/324).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 250)، ((معاني القراءات)) للأزهري (2/168)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 469).

قال ابنُ جزي: (قُرِئ بالياءِ والتاءِ والنونِ، فالنونُ لله تعالى، والتاءُ للصنعةِ، والياءُ لداودَ أو للبوس). ((التسهيل)) (2/27).

سورةُ الأنْبياءِ

الآيتان (81–82)

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ
(81) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (82)

غريب الكلمات:

عَاصِفَةً: أي: شَديدةَ الهُبوبِ، وأصلُ (عصف): يدُلُّ على خِفَّةٍ وسُرعةٍ.

تفسير الآيتين:

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (81).

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً.

أي: وسَخَّرْنا لسُلَيمانَ الرِّيحَ، والحالُ أنَّها شديدةُ الهُبوبِ.

قال تعالى: وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ [سبأ: 12].

تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا.

أي: تجري الريحُ بأمرِ سُلَيمانَ طائِعةً له، فتعودُ إلى الأرضِ التي بارك اللهُ فيها.(86)

---

(86) والمرادُ بقولِه: الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا أرضُ الشامِ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (331/16)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 721)، ((تفسير البغوي)) (301/3)، ((تفسير ابن كثير)) (358/5)، ((تفسير الشوكاني)) (495/3)، ((تفسير السعدي)) (ص: 528)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (110/3).

وقيل: المرادُ بها فلسطين.

يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (145/15).

قال الشنقيطي: (والمرادُ بأنه بارك فيها: أنَّه أكثَرَ فيها البَرَكةَ والخَيرَ بالخِصبِ والأشجارِ والثِّمارِ والمياه، كما عليه جُمهورُ العُلَماءِ.

وقال بعضُ العلماء: المرادُ بأنَّه بارك فيها أنَّه بعث الأنبياءَ منها.

وقيل غيرُ ذلك.

والعِلمُ عند الله تعالى).

((أضواء البيان)) (110/3).

كما قال تعالى: فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ [ص: 36].

وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ.

أي: وكُنَّا بجَميعِ الأشياءِ مِن أمرِ سُلَيمانَ وغَيرِه عالِمينَ، لا يخفى علينا شَيءٌ، عالِمينَ بتَدبيرِه، ومِن ذلك أنَّنا وضَعْنا هذا التَّخصيصَ في المحَلِّ الذي يليقُ به مِن الأماكِنِ والأناسيِّ.

وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (82).

وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ.

أي: وسَخَّرنا لسُلَيمانَ مِن الشَّياطينِ مَن يغوصونَ له في البَحرِ؛ لِيَستخرِجوا اللآلئَ والجواهِرَ وغيرَ ذلك.

كما قال تعالى: وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ [ص: 37].

وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ.

ذكر ابنُ عطية (٦/ ١٩٠) قولَ مَن قال: إنّ الشام هي الأرض المعنية في الآية.
ثم بيّن احتمال الآية معنًى آخر، فقال: «ويحتمل أن يريد: الأرض التي يسير إليها سليمان - عليه السلام - كائنة ما كانت، وذلك أنه لم يكن يسير إلى أرض إلا أصلحها، وقتل كفارها، وأثبت فيها الإيمان، وبث فيها العدل، ولا بركة أعظم من هذا، فكأنه قال: إلى أيِّ أرضٍ باركنا فيها فبعثنا سليمان إليها».

أي: ويعمَلُ الشَّياطينُ لِسُلَيمانَ أعمالًا أخرى غيرَ الغَوصِ؛ كعملِ المحاريبِ والتَّماثيلِ، والجِفانِ والقُدورِ الرَّاسياتِ.

كما قال تعالى: وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ [سبأ: 12– 13].

وَكُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ.

أي: وكُنَّا للشَّياطينِ الذين يعمَلونَ لسُلَيمانَ حافِظِينَ، فلا يتمَرَّدونَ على طاعتِه، أو يَزيغونَ عن أمْرِه، أو يُبَدِّلونَ أو يُغيِّرونَ، أو يُوجَدُ منهم فَسادٌ فيما هم مُسَخَّرونَ فيه، ولا يُؤذُونَ نبيَّ اللهِ سُلَيمانَ، ولا يتعَرَّضونَ بسُوءٍ لأحدٍ مِنَ النَّاسِ.

سورةُ الأنْبياءِ

الآيتان (83–84)

وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ
مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (84)

تفسير الآيتين:

وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83).

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ-[87] أيوبَ حين نادى ربَّه بأنِّي أصابني الضَّرَرُ والبلاءُ، وأنت أرحَمُ من يَرحَمُ، فارحَمْني بكَشفِ ضُرِّي.

كما قال تعالى: وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ [ص: 41].

وعن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قلتُ: يا رَسولَ اللهِ، أيُّ النَّاسِ أشَدُّ بلاءً؟ قال: الأنبياءُ، ثمَّ الصالحونَ، ثمَّ الأمثَلُ فالأمثَلُ مِنَ النَّاسِ، يُبتلى الرَّجُلُ على حَسَبِ دِينِه، فإنْ كان في دِينِه صَلابةٌ زيدَ في بلائِه، وإن كان في دِينِه رِقَّةٌ خُفِّفَ عنه، وما يزالُ البلاءُ بالعَبدِ حتى يمشيَ على ظَهرِ الأرضِ ليس عليه خَطيئةٌ)).[88]

---

(87) وممَّن قال بأنَّ قولَه تعالى: وَأَيُّوبَ متعلقٌ بفعلٍ محذوفٍ تقديرُه: اذكرْ: ابنُ جريرٍ، والقرطبي، والسعدي، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/333)، ((تفسير القرطبي)) (11/323)، ((تفسير السعدي)) (ص: 529)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (4/237).

وقال ابنُ عاشور: (عطفٌ على وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ [الأنبياء: 78] أي: وآتينا أيوبَ حكمًا وعلمًا إذ نادى ربَّه). ((تفسير ابن عاشور)) (17/125).

(88) أخرجه الترمذي (2398)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (7481)، وابن ماجه (4023)، وأحمد (1481) واللفظ له.

قال الترمذي: (حسن صحيح)، وقال ابن القيم في ((طريق الهجرتين)) (193): (ثابت)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (3/45)، وقال الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (2398): (حسن صحيح).

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (84).

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ.

أي: فاستجَبْنا دُعاءَ أيوبَ، فأزَلْنا ما حلَّ به مِن ضَرَرٍ وبَلاءٍ.

عن أنسِ بنِ مالكٍ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ - ﷺ - قال: ((إنَّ أيوبَ نبيَّ اللهِ كان في بلائِه ثمانيَ عَشْرةَ سَنةً، فرَفَضه القريبُ والبعيدُ إلَّا رَجُلَينِ مِن إخوانِه كانا مِن أخَصِّ إخوانِه، كانا يَغدُوانِ إليه، ويَرُوحانِ إليه، فقال أحدُهما لصاحِبِه: أتعلَمُ، واللهِ لقد أذنَبَ أيوبُ ذنبًا ما أذنبَه أحَدٌ! قال صاحبُه: وما ذاك؟ قال: منذُ ثمانِيَ عَشرةَ سَنةً لم يرحَمْه اللهُ فيكشِفَ عنه! فلمَّا راحا إليه لم يصبِرِ الرجُلُ حتى ذكَرَ ذلك له، فقال أيوبُ: لا أدري ما يقولُ، غيرَ أنَّ اللهَ يعلَمُ أنِّي كُنتُ أمُرُّ على الرجُلَينِ يتنازَعانِ فيَذكُرانِ اللهَ،(89) فأرجِعُ إلى بيتي فأُكَفِّرُ عنهما؛ كراهيةَ أن يُذكَرَ اللهُ إلَّا في حَقٍّ! قال: وكان يخرجُ إلى حاجتِه فإذا قضى حاجَتَه أمسكَتِ امرأتُه بيَدِه حتى يَبلُغَ، فلمَّا كان ذاتَ يومٍ أبطأ عليها، وأوحيَ إلى أيوبَ في مكانِه أن: ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ [ص: 42] ، فاستبطأَتْه فلَقِيَتْه ينتَظِرُ، وأقبل عليها قد أذهَبَ اللهُ ما به من البلاءِ، وهو على أحسَنِ ما كان، فلمَّا رأَتْه قالت: أيْ بارَكَ اللهُ

(89) فيَذكُرانِ اللهَ: أي: يحلِفانِ به، وقيل: فيذكران الله، أي: على وجهِ الاستغفارِ.
يُنظر: ((الفائق في غريب الحديث)) للزمخشري (111/2)، ((النهاية)) لابن الأثير (303/2).

فيك، هل رأيتَ نبيَّ اللهِ هذا المُبتَلى؟ وواللهِ على ذلك ما رأيتُ أحدًا أشبَهَ به منك إذ كان صَحيحًا! قال: فإنِّي أنا هو! وكان له أندرانِ:[90] أندَرٌ للقَمحِ، وأندَرٌ للشَّعيرِ، فبَعَث اللهُ سحابتَينِ، فلمَّا كانت إحداهما على أندَرِ القَمحِ أفرَغَت فيه الذَّهَبَ حتى فاض، وأفرَغَت الأخرى على أندَرِ الشَّعيرِ الوَرِقَ حتى فاض)).[91]

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((بينا أيوبُ يغتَسِلُ عُريانًا، فخَرَّ عليه جرادٌ[92] مِن ذَهَبٍ، فجعل أيوبُ يحتَثي[93] في ثَوبِه، فناداه رَبُّه: يا أيوبُ، ألم أكُنْ أغنَيتُك عمَّا ترى؟ قال: بلى وعِزَّتِك، ولكِنْ لا غِنى بي عن بركَتِك)).[94]

وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ.

---

(90) الأندَرُ: الموضِعُ الذي يُجمَعُ فيه الطَّعامُ.
يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (5/200)، ((تاج العروس)) للزبيدي (14/194).

(91) أخرجه البزار (6333)، وأبو يعلى (3617) واللفظ له، وابن حبان (2898)، والحاكم (4115).
صحَّحه ابنُ حبان، والحاكم وقال: (على شرطِ الشيخين)، وقال ابن كثير في ((البداية والنهاية)) (1/208): (غريبٌ رفعُه جدًّا، والأشبهُ أن يكون موقوفًا)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (8/211): (رجال البزار رجال الصحيح)، وصحَّح إسناده البوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (7/142)، وقال ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (6/485): (أصحُّ ما ورَد)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (17).

(92) الجراد: اسْمُ جنسٍ، واحِدُه جَرادَةٌ: وهو جِنسٌ من الحَشَراتِ؛ سُمِّيَ به لأنَّه يَجرُدُ الأرضَ فيأكُلُ كُلَّ ما عليها.
يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (1/333)، ((معجم متن اللغة)) (1/503).

(93) يَحتَثي: أي: يأخُذُ بيَدِه ويَرمي في ثوبه.
يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (1/333).

(94) رواه البخاري (279).

أي: وآتَينا أيوبَ أهلَه الذين فقَدَهم، ورَزَقْناه معهم آخرينَ مِثلَ عَدَدِهم زيادةً على ذلك.[95]

كما قال تعالى: وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ [ص: 43].

رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا.

أي: ردَدْنا لأيوبَ أهلَه ومِثلَهم معهم؛ رحمةً منَّا به.

---

(95) قال ابن الجوزيّ: (قولُه تعالى: وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ يعني: أولادَه ومِثلَهم معهم، فيه أربعةُ أقوالٍ: أحدها: أنَّ الله تعالى أحيا له أهلَه بأعيانِهم، وآتاه مِثلَهم معهم في الدُّنيا، قاله ابنُ مسعودٍ، والحَسَنُ، وقتادةُ.

وروى أبو صالحٍ عن ابنِ عبَّاسٍ: كانت امرأتُه ولَدَت له سبعةَ بنينَ وسَبْعَ بناتٍ، فنُشِروا له، ووَلَدت له امرأتُه سبعةَ بنين وسبعَ بنات.

والثاني: أنَّهم كانوا قد غُيِّبوا عنه ولم يموتوا، فآتاه إيَّاهم في الدُّنيا ومِثلَهم معَهم في الآخرةِ، رواه هشامٌ عن الحسنِ.

والثالث: آتاه اللهُ أجورَ أهلِه في الآخرةِ، وآتاه مِثلَهم في الدنيا، قاله نَوْفٌ، ومجاهدٌ.

والرابع: آتاه أهلَه ومِثلَهم معَهم في الآخرةِ، حكاه الزجَّاجُ).

((تفسير ابن الجوزي)) (207/3).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/365 - 367).

قال الزجَّاج: (أكثَرُ التفاسير أنَّ الله جلَّ ثناؤه أحيا مَن مات مِن بنيه وبناتِه، ورزقه مِثلَهم مِن الوَلَدِ).

((معاني القرآن)) (401/3).

وقال السَّمعاني: (قولُه: وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ قال ابنُ مسعودٍ، وابنُ عباسٍ، والحسنُ: ردَّ إليه أهلَه وأولادَه بأعيانِهم، وهذا هو القَولُ المعروفُ، وظاهِرُ القرآنِ يدُلُّ عليه).

((تفسير السمعاني)) (400/3).

وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ.

أي: وتذكيرًا للذين يَعبُدونَ اللهَ؛ لِيَعتبِروا بقصةِ أيوبَ، ويَصبِروا كما صبرَ.[96]

كما قال تعالى: وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ [ص: 43].

(96) قال ابن جرير: (قوله: وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ يقولُ: وتذكِرةً للعابدينَ ربَّهم فعَلْنا ذلك به؛ لِيَعتَبِروا به ويعلَموا أنَّ اللهَ قد يبتلي أولياءَه ومَن أحبَّ مِن عبادِه في الدُّنيا بضُروبٍ مِنَ البلاءِ في نفسِه وأهلِه ومالِه، مِن غيرِ هوانٍ به عليه، ولكِنْ اختبارًا منه له؛ لِيَبلُغَ بصَبرِه عليه واحتِسابِه إيَّاه وحُسنِ يَقينِه، مَنزِلَتَه التي أعَدَّها له تبارك وتعالى مِنَ الكرامةِ عندَه).

((تفسير ابن جرير)) (16/367، 368).

وقال ابنُ عاشور: (الذِّكرى: التذكيرُ بما هو مَظِنَّةٌ أن يُنسى أو يُغفَلَ عنه.

وهو معطوفٌ على رَحْمَةً فهو مفعولٌ لأجلِه، أي: وتَنبيهًا للعابدينَ بأنَّ اللهَ لا يَترُكُ عِنايَتَه بهم).

((تفسير ابن عاشور)) (17/128).

سورةُ الأنْبياءِ

الآيات (85–88)

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (85) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (86) وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88)

غريب الكلمات:

نَقْدِرَ عَلَيْهِ: أي: نُضَيِّقَ عليه، مِن قَولِهم: قَدَرْتُ على فُلانٍ: إذا ضَيَّقْتَ عليه، وقيل: نَقْدِرُ: بمعنى نُقَدِّرُ، والمعنى لن نُقَدِّرَ عليه ما قَدَّرْنا مِن كَونِه في بطنِ الحوتِ.

تفسير الآيات:

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (85).

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ.

أي: واذكُرْ –يا محمَّدُ– إسماعيلَ بنَ إبراهيمَ، وإدريسَ، وذا الكِفْلِ.(97)

كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ.

أي: كلٌّ منهم مِن الصَّابرينَ على الابتلاءاتِ، وعلى فِعلِ الطَّاعاتِ، واجتنابِ السَّيِّئاتِ.

---

(97) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/368، 373)، ((تفسير ابن كثير)) (5/363)، ((تفسير السعدي)) (ص: 529).

اختلَف العلماءُ في ذي الكِفْلِ، هل هو نبيٌّ أم لا؟ فذهب الواحديُّ والشوكاني –ونسَبه للجمهورِ– إلى أنَّه ليس نبيًّا.

يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: 722)، ((تفسير الشوكاني)) (3/496).

وممن قال بذلك مِن السلفِ: أبو موسى الأشعري، ومجاهدٌ، وقتادةُ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/371)، ((تفسير الماوردي)) (3/464)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/207).

وذهب الرازي، وابنُ كثير، والعُليمي، والسعدي إلى أنَّه نبيٌّ.

يُنظر: ((تفسير الرازي)) (22/177)، ((تفسير ابن كثير)) (5/363)، ((تفسير العليمي)) (4/383)، ((تفسير السعدي)) (ص: 529).

قال ابن كثير: (وأمَّا ذو الكِفْلِ فالظَّاهِرُ مِنَ السِّياقِ أنَّه ما قُرِنَ معَ الأَنبياءِ إلَّا وهو نَبِيٌّ).

((تفسير ابن كثير)) (5/363).

وممن قال بذلك مِن السلفِ: الحسنُ، وعطاءٌ.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (3/207).

وتوقَّفَ ابنُ جرير في ذلك.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/368).

ويُنظر في سببِ تسميتِه بذلك: ((تفسير ابن جرير)) (16/368)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/207).

وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (86).

وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا.

أي: وأدخَلْنا إسماعيلَ وإدريسَ وذا الكفلِ في رَحمتِنا.[98]

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((احتَجَّت النَّارُ والجنَّةُ، فقالت هذه: يَدخُلُني الجبَّارونَ والمتكبِّرون، وقالت هذه: يدخُلُني الضُّعَفاءُ والمساكينُ، فقال اللهُ عَزَّ وجَلَّ لهذه: أنتِ عذابي أُعَذِّبُ بكِ مَن أشاءُ -وربما قال: أصيبُ بكِ مَن أشاءُ، وقال لهذه: أنتِ رحمتي أرحَمُ بكِ من أشاءُ، ولكُلِّ واحدةٍ منكما مِلؤُها)).[99]

---

(98) قيل: المرادُ بقولِه: رَحْمَتِنَا هنا: الجَنَّةُ.

وممَّن ذهب إلى ذلك: يحيى بنُ سلام، والقرطبي.

يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (1/335)، ((تفسير القرطبي)) (11/328).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (3/208).

وقيل: المرادُ بها: النبوةُ.

وممن اختاره: مقاتلُ بنُ سليمان، والسمرقندي، والعُليمي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/90)، ((تفسير السمرقندي)) (2/438)، ((تفسير العليمي)) (4/383).

وممن جمَع بينَ القولينِ السابقينِ، فقال: المرادُ بها: النبُوَّةُ والجنَّةُ: الواحدي، والبغوي، والخازنُ.

يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (3/248)، ((تفسير البغوي)) (3/313)، ((تفسير الخازن)) (3/240).

(99) رواه البخاري (4850)، ومسلم (2846) واللفظ له.

إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ.

أي: أدخَلْناهم في رَحمَتِنا؛ لأنَّهم مِنَ الكامِلينَ في الصَّلاحِ، الجامِعينَ لخِصالِ الخَيرِ، المُطِيعينَ لله.

وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87).

وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا.

أي: واذكُرْ -يا مُحَمَّدُ- يُونُسَ صاحِبَ الحُوتِ حينَ ذَهَب غاضِبًا على قَومِه مِن أجْلِ رَبِّه؛ لِكُفرِهم به، وعِصيانِهم له، بعدَما دعاهم إليه.[100]

(100) قال الرازي: (لا خِلافَ في أنَّ ذا النُّونِ هو يونُسُ عليه السَّلامُ؛ لأنَّ النونَ هو السَّمَكةُ).
((تفسير الرازي)) (178/22).
وقال ابن كثير: (يونُسُ بنُ مَتَّى عليه السَّلامُ بَعَثه اللهُ إلى أهلِ قَريةِ «نِينَوى»، وهي قريةٌ مِن أرضِ المَوصِلِ، فدعاهم إلى اللهِ، فأبَوا عليه وتمادَوا على كُفرِهم؛ فخرج مِن بينِ أظهُرِهم مُغاضِبًا لهم).
((تفسير ابن كثير)) (366/5).
وقال ابنُ جُزي: (أدركَه ضَجَرٌ منهم، فخرج عنهم؛ ولذلك قال الله تعالى: وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ [القلم: 48] ، ولا يَصِحُّ قَولُ مَن قال: مُغاضِبًا لرَبِّه).
((تفسير ابن جزي)) (28/2).

فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ.

أي: فظَنَّ يُونُسُ أنَّنا لن نُعاقِبَه هذه العُقوبةَ، فنُضَيِّقَ عليه بحَبسِه في بَطنِ الحُوتِ.(101)

فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ.

(101) قال الشنقيطي: (وقولُه: فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فيه وجهانِ مِن التَّفسيرِ لا يُكَذِّبُ أحدُهما الآخَرَ: الأوَّلُ: أنَّ المعنى: لن نَقدِرَ عليه، أي: لن نضَيِّقَ عليه في بطنِ الحُوتِ، ومِن إطلاقِ «قَدَرَ» بمعنى «ضَيَّقَ» في القرآنِ قولُه تعالى: اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ [الرعد: 26] أي: ويضَيِّقُ الرِّزقَ على من يشاءُ...

الوجه الثاني: أنَّ معنى لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ: لن نَقضِيَ عليه ذلك، وعليه: فهو من القَدَرِ والقَضاءِ.

«وقَدَرَ» بالتخفيفِ تأتي بمعنى «قَدَّرَ» المضعَّفة، ومنه قولُه تعالى: فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ [القمر: 12] أي: قَدَّرَه اللهُ).
((أضواء البيان)) (4/240).

وقال ابنُ عاشور: (وعندي فيه تأويلانِ آخرانِ، وهما: أنَّه ظَنَّ وهو في جَوفِ الحُوتِ أنَّ اللهَ غيرُ مُخَلِّصِه في بَطنِ الحُوتِ؛ لأنَّه رأى ذلك مُستحيلًا عادةً، وعلى هذا يكونُ التَّعقيبُ بحَسَبِ الواقِعةِ، أي: ظَنَّ بعد أن ابتَلَعه الحوتُ، وأمَّا نداؤُه رَبَّه فذلك توبةٌ صدَرَت منه عن تقصيرِه أو عَجَلتِه، أو خَطأِ اجتهادِه؛ ولذلك قال: إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ؛ مبالغةً في اعترافِه بظُلمِ نَفسِه.

أو أنَّه ظَنَّ بحَسَبِ الأسبابِ المعتادةِ أنَّه يُهاجِرُ مِن دارِ قَومِه، ولم يظُنَّ أنَّ اللهَ يَعوقُه عن ذلك؛ إذ لم يسبِقْ إليه وحيٌ مِنَ اللهِ).
((تفسير ابن عاشور)) (17/131، 132).

أي: فنادَى يونُسُ رَبَّه وهو في الظُّلُماتِ[102] فقال: لا إلهَ إلَّا أنتَ، أُنَزِّهُك عن جَميعِ النَّقائِصِ والعُيوبِ، إنِّي كُنتُ ظالِمًا لِنَفسي بمَعصِيَتِك حينَ خَرَجْتُ مِن قَومي.[103]

---

(102) قال ابن جرير: (لا شَـــكَّ أنَّه قد عنى بإحدى الظُّلُماتِ: بَطنَ الحوتِ، وبالأُخرَى: ظُلمةَ البحرِ، وفي الثالثةِ اختلافٌ، وجائزٌ أن تكون تلك الثالثةُ ظُلمةَ الليلِ، وجائزٌ أن تكون كونَ الحوتِ في جوفِ حُوتٍ آخر.

ولا دليلَ يدُلُّ على أيِّ ذلك مِن أيٍّ، فلا قَولَ في ذلك أولى بالحَقِّ مِن التَّسليمِ لظاهِرِ التنزيلِ).

((تفسير ابن جرير)) (16/383، 384).

وقال القرطبي: (يصِحُّ أن يُعبَّرَ بالظُّلُماتِ عن جوفِ الحُوتِ الأولِ فقط، كما قال: فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ [يوسف: 10] وفي كل جِهاتِه ظُلمةٌ، فجَمْعُها سائغٌ).

((تفسير القرطبي)) (11/333).

وقيل: المراد بالظُّلُمات: ظلمةُ الحوتِ والبَحرِ واللَّيلِ.

نسبه الرسعني لأكثر المفسرين، وممن قال به: ابنُ عاشور، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (4/658)، ((تفسير ابن عاشور)) (17/133)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (4/242).

وممن ذهب إلى هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، والضحاكُ، والحسنُ، وعمرُو بنُ ميمون، وابنُ جُرَيجٍ، ومحمدُ بنُ كعبٍ، وقتادةُ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/382)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/210)، ((تفسير ابن كثير)) (5/367).

اختلف السلف في تفسير قوله تعالى: ﴿إذ ذهب مغاضبا﴾؛ فقال بعضهم: ذهب مغاضبًا لقومه.

وقال آخرون: ذهب مُغاضبًا لربه إذ رفع العذاب عن قومه.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٦/ ٣٧٧) مستندًا إلى السياق القول الثاني بقوله: «وهذا القول –أعني: قولَ مَن قال: ذهب عن قومه مغاضبًا لربه– أشبه بتأويل الآية، وذلك لدلالة قوله: ﴿فظن أن لن نقدر عليه﴾ على ذلك».

وانتقد (١٦/ ٣٧٧ بتصرف) مستندًا إلى الدلالة العقلية والقرآن القول الأول، فقال: «على أنّ الذين وجّهوا تأويل ذلك إلى أنّه ذهب مغاضبًا لقومه إنّما زعموا أنّهم فعلوا ذلك استنكارًا منهم أن يغاضب نبيٌّ من الأنبياء ربه، واستعظامًا له.

وهم بقيلهم أنّه ذهب مغاضبًا لقومه قد دخلوا في أمر أعظم مما أنكروا؛ لأن ذهابه عن قومه مغاضبًا لهم، وقد أمره الله تعالى بالمقام بين أظهرهم، ليبلغهم رسالته، لا شك أن فيه ما فيه.

ولولا أنه قد كان – ﷺ – أتى ما قاله الذين وصفوه بإتيان الخطيئة، لم يكن الله –تعالى ذِكْرُه– ليعاقبه العقوبة التي ذكرها في كتابه، ويَصِفه بالصِّفة التي وصفه بها، فيقول لنبيه – ﷺ –: ﴿ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم﴾ [القلم: ٤٨]، ويقول: ﴿فالتقمه الحوت وهو مليم فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ [الصافات: ١٤٣]».

كما قال تعالى: وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ [الصافات: 139 – 144].

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88).

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ.

أي: فأجَبْنا دُعاءَ يُونُسَ، ونَجَّيْناه مِن الغَمِّ والشِّدَّةِ التي وقَعَ فيها، فأخرَجْناه مِن بَطنِ الحُوتِ.

كما قال تعالى: فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ [الصافات: 145، 146].

وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ.

أي: وكما نجَّيْنا يونسَ مِن غَمِّه حين دَعانا، كذلك نُنجِي المؤمنينَ مِن غُمومِهم وكُرَبِهم إذا دَعَونا بإخلاصٍ.

وانتقد ابنُ عطية (٦/ ١٩٥) مستندًا إلى الدلالة العقلية القول الثاني، قائلًا: «وفي هذا القول مِن الضَّعْف ما لا خفاء به مِمّا لا يَتَّصِف به نبيٌّ».

وذكر ابنُ عطية قولًا ثالثًا في الآية، فقال: «وقالت فرقة: إنما غاضب الملِك الذي كان على قومه».

ثم علّق عليه قائلًا: «وهذا نحوٌ مِن الأول [يعني قول من قال: غاضب قومه] فيما يلحق منه يونس – عليه السلام –».

(103) قال القرطبي: (إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ يريدُ فيما خالفَ فيه مِن تَرْكِ مُداومةِ قومِه والصَّبرِ عليهم.

وقيل: في الخروجِ مِن غيرِ أن يُؤذَنَ له).

((تفسير القرطبي)) (334/11).

كما قال تعالى: كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ [يونس: 103].

وعن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((دَعوةُ ذي النُّونِ إذ دعا وهو في بَطنِ الحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ؛ فإنَّه لم يَدْعُ بها رجُلٌ مُسلِمٌ في شَيءٍ قَطُّ إلَّا استجابَ اللهُ له)).(104)

---

(104) أخرجه الترمذي (3505) واللفظ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (10492)، وأحمد (1462).

حسَّنه ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (93/4)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (71/7): (رجالُه رجالُ الصحيح غير إبراهيمَ بنِ محمد بن سعدِ بن أبي وقاصٍ، وهو ثقةٌ)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (36/3)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (3505).

سورةُ الأنْبياءِ

الآيتان (89–90)

وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (89) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ
يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا
خَاشِعِينَ (90)

غريب الكلمات:

رَغَبًا وَرَهَبًا: أي: راغِبينَ في الجنَّةِ، وخائِفينَ مِن النَّارِ، وأصلُ (رغب): يدُلُّ على طَلَبٍ لِشَيءٍ. وأصلُ (رهب): يدُلُّ على خوفٍ.

تفسير الآيتين:

وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (89).

وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا.

أي: واذكُرْ –يا محمَّدُ– زكريَّا حينَ نادَى ربَّه، فقال: ربِّ، لا تترُكْني وَحيدًا بلا وَلَدٍ.

كما قال تعالى: ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا [مريم: 2 – 6].

وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ.

أي: فارزُقْني وارِثًا مِن نَسلي يَقومُ بالدِّينِ مِن بَعدي، وأنت خيرُ الباقينَ بعدَ مَوتِ العبادِ، وخَيرُ مَن يخلُفُني بخَيرٍ، وأنا أعلمُ أنَّك لن تُضَيِّعَ دينَك، ولكِنْ لا تَقطَعْ فَضيلةَ القيامِ بأمرِ الدِّينِ وهِبةِ العِلمِ والحِكمةِ عَن عَقِبي.(105)

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (90).

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى.

أي: فاستَجَبْنا لزكريَّا دُعاءَه، ورَزَقْناه ولَدًا اسْمُه يحيى.

كما قال تعالى: يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا [مريم: 7].

وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ.

أي: وأصلَحْنا لزكريَّا امرأتَه العقيمَ، فجعَلْناها وَلودًا صالِحةً للحَملِ.(106)

---

(105) قال الرازي: (أمَّا قولُه: وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ففيه وجهانِ: أحدُهما: أنَّه عليه السَّـــلامُ إنَّما ذَكَره في جملةِ دعائِه على وجهِ الثَّناءِ على ربِّه؛ ليكشِفَ عن علمِه بأنَّ مآلَ الأمورِ إلى اللَّهِ تعالَى.

والثَّاني: كأنَّه عليه السَّلامُ قال: إنْ لم ترزُقْني مَن يرثُني فلا أُبالي؛ فإنَّكَ خيرُ وارثٍ).

((تفسير الرازي)) (182/22).

(106) نسَب الواحدي القولَ بأنَّ المرادَ بإصلاحِ زوجِه أنَّها كانت عاقِرًا فجَعَلها اللَّهُ وَلودًا- نسبه إلى أكثرِ المفسِّرين.

يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (179/15).

قال الشنقيطي: (فهذا الإصلاحُ هو كونُها صارت تَلِدُ بعد أن كانت عقيمًا.

إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ.

أي: إنَّ زكريَّا وزَوجَه ويحيَى كانوا يُبادِرونَ إلى فِعلِ الطَّاعاتِ، وما يُقرِّبُهم إلينا.

وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا.

وقَولُ مَن قال: إنَّ إصلاحَها المذكورَ هو جَعلُها حَسَنةَ الخُلُقِ بعد أن كانت سَيِّئةَ الخُلُقِ: لا ينافي ما ذُكِرَ؛ لجوازِ أن يجمَعَ له بين الأمرينِ فيها، مع أنَّ كونَ الإصلاحِ هو جَعْلَها ولودًا بعد العُقمِ هو ظاهِرُ السِّياقِ، وهو قَولُ ابنِ عبَّاسٍ، وسعيدِ بنِ جُبيرٍ، ومجاهدٍ، وغَيرِهم.

والقَولُ الثَّاني يُروى عن عطاءٍ).

((أضواء البيان)) (3/366).

ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (11/336)، ((تفسير الشوكاني)) (3/502).

وممن اختار الجمعَ بين القولين السابقين: ابن جرير، والسمرقندي، والعُليمي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/389)، ((تفسير السمرقندي)) (2/440)، ((تفسير العليمي)) (4/388).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير الشوكاني)) (3/502).

قال ابن جرير: (والصوابُ مِنَ القَولِ في ذلك أن يُقالَ: إنَّ اللهَ أصلَحَ لزكريَّا زَوجَه، كما أخبَرَ تعالى ذِكرُه، بأن جعَلَها وَلُودًا حَسَنةَ الخُلُقِ؛ لأنَّ كُلَّ ذلك من معاني إصلاحِه إيَّاها، ولم يَخْصُصِ اللهُ جلَّ ثناؤه بذلك بَعضًا دونَ بَعضٍ في كتابِه، ولا على لِسانِ رَسولِه، ولا وضَعَ على خصوصِ ذلك دَلالةً؛ فهو على العُمومِ ما لم يأتِ ما يَجِبُ التَّسليمُ له بأنَّ ذلك مرادٌ به بعضٌ دونَ بَعضٍ).

((تفسير ابن جرير)) (16/389).

اختُلِفَ في معنى الإصلاح الذي عناه الله بقوله: ﴿وأصلحنا له زوجه﴾ على قولين: الأول: كانت عقيمًا لا تَلِد، فأصلحها الله، فجعلها ولودًا.

والثاني: كان في خلقها سوءٌ، فرزقها الله حُسن الخلق.

ورجّح ابنُ عطية (٦/ ١٩٧ – ١٩٨) مستندًا إلى السياق القول الأول، فقال: «وهذا هو الذي يُشبه الآية».

ثم انتقد القول الثاني، فقال: «وهذا ضعيف».

ثم علّق بقوله حيث قال: «وعموم اللفظة يتناول كل وجوه الإصلاح».

ورجّح ابنُ كثير (٩/ ٤٣٩) مستندًا إلى السياق القول الأول، فقال: «والأظهر مِن السياق الأول».

أي: وكانوا يَدْعُوننا؛ رَغبةً منهم في ثوابِ اللهِ ورَحمتِه، ورَهبةً مِن عذابِه وغَضَبِه.

وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ.

أي: وكانوا لنا مُتواضِعينَ خاضِعينَ، مُتذَلِّلينَ لا يَستكبِرونَ عن عبادتِنا ودُعائِنا، قد انكَسَرت قلوبُهم للهِ، وسكَنَت عن الالتِفاتِ إلى غَيرِه.[107]

(107) قال ابنُ القيِّم: (الخشوعُ في أصلِ اللُّغةِ: الانخِفاضُ، والذُّلُّ، والسُّكونُ... وأجمع العارِفونَ على أنَّ الخُشوعَ محَلُّه القلبُ، وثَمَرتُه على الجوارِحِ، وهي تُظهِرُه).
((مدارج السالكين)) (1/516، 517).

سورةُ الأنْبياءِ

الآيات (91-94)

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (91) إِنَّ هَذِهِ
أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ
(93) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (94)

غريب الكلمات:

وَتَقَطَّعُوا: أي اختَلَفوا، وتفَرَّقوا، وأصلُ (قطع): يدُلُّ على صَرمٍ، وإبانةِ شيءٍ مِن شيءٍ.

فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ: أي: لاجحودَ لعملِه، ولا تضييعَ لجزائِه، وأصلُ (كفر): يدلُّ على السَّترِ والتَّغطيةِ، والسعيُ: المشيُ السريعُ، وأكثرُ ما يُستعمَلُ في الأفعالِ المحمودةِ.

تفسير الآيات:

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (91).

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- مَريمَ التي حَفِظَت فَرْجَها من الحَرامِ،[108] فأمَرْنا جبريلَ أن يَنفُخَ الرُّوحَ في جَيبِ درعِها،[109] فبَلَغت النَّفخةُ فَرْجَها، فحَمَلت بعِيسى.[110]

---

(108) اختلف السلف في الفرج الذي عنى الله أن مريم أحصنته؛ فقيل: هو فرج نفسها أحصنته عن الفاحشة.

وقيل: هو جيب درعها.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٦/ ٣٩١) مستندًا لظاهر الآية والأغلب في اللغة القول الأول، وعلَّل ذلك بقوله: «لأنّ ذلك هو الأغلب مِن مَعْنَيَيه عليه، والأظهر في ظاهر الكلام».

ورجّح ابنُ عطية (٦/ ١٩٨) مستندًا إلى ظاهر القرآن والدلالة العقلية القول الأول، فقال: «والفرجُ -فيما قال الجمهور، وهو ظاهر القرآن-: الجارحة المعروفة، وفي إحصانها هو المدح».

ثم انتقد القول الثاني، فقال: «وقالت فرقة: الفرج هنا: فرج ثوبها الذي منه نفخ الملك، وهذا ضعيف».

ووجّه ابنُ تيمية (٤/ ٣٨٩) قولَ مَن قال: نفخ في جيب درعها، بقوله: «فإنّ مَن نقل: أنّ جبريل نفخ في جيب الدرع. فمراده: أنّه -ﷺ- لم يكشف بدنها، وكذلك جبريل كان إذا أتى النبي -ﷺ- وعائشة مُتجَرِّدة لم ينظر إليها مُتجَرِّدة، فنفخ في جيب الدِّرع، فوصلت النفخة إلى فرجها».

ثم قال: «والمقصود إنما هو النفخ في الفرج، كما أخبر الله به في الآيتين، وإلا فالنفخ في الثوب فقط مِن غير وصول النفخ إلى الفرج مخالف للقرآن، مع أنه لا تأثير له في حصول الولد، ولم يقل ذلك أحد من أئمة المسلمين، ولا نقله أحد عن عالم معروف مِن السلف».

(109) دِرْعُ المرأةِ: قميصُها.

وجَيْبُ القَميصِ: طَوقُه الذي يَنفَتِحُ على العُنُقِ.

يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (1206/3)، ((المصباح المنير)) للفيومي (115/1).

(110) قال ابن تيميَّةَ: (ذكر المفَسِّرونَ أنَّ جِبريلَ نفَخَ في جَيبِ دِرعِها، والجَيبُ: هو الطَّوقُ الذي في العُنُقِ، ليس هو ما يسَمّيه بعضُ العامَّةِ جَيبًا، وهو ما يكونُ في مُقَدَّمِ الثَّوبِ لِوَضعِ الدَّراهِمِ ونَحوِها...

كما قال تعالى: وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا [التحريم: 12].

وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ.

أي: وجعَلْنا مَريمَ وابنَها عيسى عَلامةً عَظيمةً للنَّاسِ[111] تدُلُّهم على اللهِ، وعلى قُدرتِه وعَظيمِ سُلْطانِه.

وذكر أبو الفرج وغيرُه قولين: هل كانت النَّفخةُ في جَيبِ الدِّرعِ، أو في الفَرجِ؟ فإنَّ مَن قال بالأوَّلِ قال: في فَرْجِ دِرعِها، وإنَّ مَن قال هو مَخْرَجُ الوَلَدِ قال: الهاءُ كنايةٌ عن غيرِ مذكورٍ؛ لأنَّه إنَّما نفَخَ في دِرعِها لا في فَرْجِها، وهذا ليس بشيءٍ، بل هو عدولٌ عن صريحِ القرآنِ.

وهذا النَّقلُ إن كان ثابتًا لم يُناقِضِ القرآنَ، وإن لم يكن ثابتًا لم يُلتَفَتْ إليه؛ فإنَّ مَن نقَلَ أنَّ جِبريلَ نفَخَ في جَيبِ الدِّرعِ، فمُراده أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم لم يكشِفْ بدَنَها، وكذلك جبريلُ كان إذا أتى النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم وعائشةُ متجرِّدةٌ لم ينظُرْ إليها متجرِّدةً؛ فنفَخَ في جَيبِ الدِّرعِ فوصَلَت النَّفخةُ إلى فَرْجِها.

والمقصودُ إنما هو النَّفخُ في الفَرجِ، كما أخبَرَ اللهُ به في آيتينِ، وإلَّا فالنَّفخُ في الثَّوبِ فقط من غيرِ وُصولِ النَّفخِ إلى الفَرجِ مُخالِفٌ للقرآنِ، مع أنَّه لا تأثيرَ له في حصولِ الوَلَدِ، ولم يقُلْ ذلك أحَدٌ من أئمَّةِ المُسلِمينَ، ولا نقَلَه أحَدٌ عن عالمٍ معروفٍ من السَّلَفِ).

((مجموع الفتاوى)) (262/17، 263).

وقال السعدي: (أي: واذكُرْ مَريمَ -عليها السَّلامُ- مُثنيًا عليها، مُبَيِّنًا لِقَدْرِها، شاهِرًا لشَرَفِها، فقال: وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا أي: حَفِظَتْه من الحرامِ وقربانِه، بل ومِنَ الحَلالِ؛ فلم تتزوَّجْ لاشتغالِها بالعبادةِ، واستغراقِ وَقتِها بالخِدمةِ لرَبِّها.

وحينَ جاءها جِبريلُ في صورةِ بَشَرٍ سَويٍّ تامِّ الخَلقِ والحُسنِ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا، فجازاها اللهُ من جنسِ عَمَلِها، ورزَقَها ولدًا مِن غيرِ أبٍ).

((تفسير السعدي)) (ص: 530).

(111) قيل: المرادُ بقولِه تعالى: لِلْعَالَمِينَ: للنَّاسِ في زمانِ مريمَ وعيسى.

وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير، ومكِّي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (391/16)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (4811/7).

وقيل: لِلْعَالَمِينَ أي: لِمَن عاصَرَهما مِن عالَمِي زمانِها فمَن بَعدَهم.

وممن اختار ذلك: ابن عطية، وأبو حيان، وهو ظاهِرُ اختيارِ البقاعي، والسعدي.

((تفسير ابن عطية)) (98/4)، ((تفسير أبي حيان)) (464/7)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (472/12)، ((تفسير السعدي)) (ص: 530).

كما قال تعالى: وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً [المؤمنون: 50].

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92).

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً.

أي: إنَّ مِلَّةَ الإسلامِ[112] أيُّها الناسُ[113] هي مِلَّتُكم[114] الَّتي يَجِبُ أن تُحافِظوا على حدودِها، وتُراعوا حقوقَها، وأنْ تكونوا عليها، لا تنحرِفونَ عنها، مِلَّةً واحِدَةً، غيرَ مختلفةٍ.

---

(112) ممن اختار المعنى المذكورَ، وأنَّ المرادَ بالإشارةِ في قوله: هَذِهِ: ملةُ الإسلامِ: الزمخشري، والرسعني، والنسفي، وأبو حيان، والعليمي، والألوسي.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (134/3)، ((تفسير الرسعني)) (665/4)، ((تفسير النسفي)) (419/2)، ((تفسير أبي حيان)) (464/7)، ((تفسير العليمي)) (389/4)، ((تفسير الألوسي)) (84/9).

وقال أبو حيان: (ويحتمِلُ أنْ تكونَ هَذِهِ إشـــارَةً إلى الطَّريقةِ الَّتي كانَ عليها الأنبياءُ المذكورونَ مِن توحيدِ اللَّهِ تعالَى هي طريقَتُكم ومِلَّتُكم طريقةً واحدةً لا اختلافَ فيها في أُصولِ العقائدِ، بل ما جاءَ به الأنبياءُ مِن ذلك هو ما جاءَ به محمَّدٌ صلَّى اللَّهُ عليه وسَلَّم).

((تفسير أبي حيان)) (464/7).

وقيل: إنَّ هَذِهِ إشارةٌ إلى الأنبياءِ والرسلِ عليهم السلامُ.

وهو اختيارُ البقاعي، والسـعدي، يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (476/12)، ((تفسـير السـعدي)) (ص: 530)، وقيل غيرُ ذلك.

يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (84/9، 85).

(113) ممن اختار أنَّ الخطابَ للناسِ: ابن جرير، ومكي، والزمخشري، والألوسي، والقاسمي، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (392/16)، ((الهداية)) لمكي (4811/7)، ((تفسير الزمخشري)) (134/3)، ((تفسير الألوسي)) (84/9)، ((تفسير القاسمي)) (221/7)، ((تفسير السعدي)) (ص: 530).

وقيل: الخطابُ لأُمَّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم.

وهو ظاهرُ اختيارِ مقاتل بن سليمان.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (92/3).

وقيل: هو خطابٌ لمعاصري الرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم.

وممن اختاره: أبو حيان.

يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (464/7).

وقيل: هو خطابٌ للأنبياءِ عليهم السلامُ.

قاله أبو سليمان الدمشقي.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (211/3)، ((تفسير الرسعني)) (666/4).

وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ.

أي: وأنا -لا غيري- مَنْ خلَقْتُكم وربَّيتُكم بنِعَمي، فما دام أنَّ الرَّبَّ واحِدٌ والدِّينَ واحِدٌ، فأفرِدُوني بالعِبادةِ، ولا تُشرِكوا بي، ولا تختَلِفوا في ذلك.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ [المؤمنون: 51- 52].

---

(114) ممن اختار أنَّ المرادَ بالأمَّةِ: الملةُ والدِّينُ والشريعةُ في الجملةِ: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جرير، والسمرقندي، ومكي، والزمخشري، والقرطبي، والبيضاوي، والخازن، وأبو حيان، والنسفي، والألوسي ونسَبه للجمهورِ، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (92/3)، ((تفسير ابن جرير)) (392/16)، ((تفسير السمرقندي)) (440/2)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (4811/7)، ((تفسير الزمخشري)) (134/3)، ((تفسير القرطبي)) (338/11)، ((تفسير البيضاوي)) (60/4)، ((تفسير الخازن)) (242/3)، ((تفسير أبي حيان)) (464/7)، ((تفسير النسفي)) (419/2)، ((تفسير الألوسي)) (84/9)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (246/4).

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وقتادةُ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، والسُّدِّي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (340/1)، ((تفسير ابن جرير)) (392/16)، ((تفسير الماوردي)) (469/3)، ((تفسير ابن كثير)) (371/5).

قال الألوسي: (وقيل: إنَّ هَذِهِ إشارةٌ إلى جماعةِ الأنبياءِ المذكورينَ عليهم السلامُ، والأُمَّةُ بمعنى الجماعةِ، أي: إنَّ هؤلاء جماعتُكم التي يلزمُكم الاقتداءُ بهم، مجتمعينَ على الحقِ، غيرَ مختلفينَ.

وفيه جهةُ حُسْنٍ، كما لا يخفَى، والأوَّلُ أحسنُ وعليه جمهورُ المفسرينَ، وهو المرويُّ عن ابنِ عباسٍ ومجاهدٍ وقتادةَ).

((تفسير الألوسي)) (85/9).

وممن اختار هذا القولَ: البقاعيُّ، والسعدي.

يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (476/12)، ((تفسير السعدي)) (ص: 530).

قال السعدي: (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً أي: هؤلاءِ الرُّسلُ المذكورونَ هم أُمَّتُكم وأئِمَّتُكم الذين بهم تأْتَمُّون، وبهَدْيِهم تقتدونَ، كلُّهم على دينٍ واحدٍ، وصراطٍ واحدٍ، والربُّ أيضًا واحدٌ).

((تفسير السعدي)) (ص: 530).

وقال سُبحانَه: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ [الشورى: 13].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِي اللهُ عنه، عن رَسولِ اللهِ – ﷺ – قال: ((أنا أَولى النَّاسِ بعِيسى[115] ابنِ مَريمَ في الأُولى والآخرةِ. قالوا: كيفَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: الأنبياءُ إِخوةٌ مِن عَلَّاتٍ،[116] وأمَّهاتُهم شَتَّى، ودينُهم واحِدٌ، فليس بيننا نبيٌّ)).[117]

وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (93).

وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ.

(115) أَولى النَّاسِ بعِيسى: أخصُّهم به، وأقربُهم إليه.
يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (207/1).
(116) أولادُ العَلَّاتِ: الذين أمهاتُهم مُختلفةٌ وأبوهم واحِدٌ؛ أراد أنَّ إيمانَهم واحدٌ، وشرائِعَهم مُختَلفةٌ.
يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (291/3).
(117) رواه مسلم (2365).

أي: وتفرَّق النَّاسُ[118] في دينِهم الذي شرَعَه اللهُ لهم، فصاروا فيه فِرَقًا وأحزابًا شَتَّى.[119]

كما قال تعالى: فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ [المؤمنون: 53].

---

(118) ممن اختار أنَّ الضميرَ يرجعُ إلى الناسِ أو جميعِ الخلقِ: ابن جرير، والسمعاني، وابن كثير، والقاسمي، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/393)، ((تفسير السمعاني)) (3/407)، ((تفسير ابن كثير)) (5/372)، ((تفسير القاسمي)) (7/221)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (4/246).

وقيل: المرادُ: المشركون؛ ذمَّهم الله تعالى؛ لمخالفتِهم الحقَّ، واتخاذِهم آلهةً مِن دونِ الله.

وممن اختاره: القرطبي، والشوكاني، وابن عاشور.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (11/339)، ((تفسير الشوكاني)) (3/503)، ((تفسير ابن عاشور)) (17/141).

قال الشوكاني: (والمقصودُ بالآيةِ المشركونَ، ذَمَّهم اللَّهُ بمخالفةِ الحقِّ واتِّخاذِهم آلهةً مِن دونِ اللَّهِ.

وقيل: المرادُ جميعُ الخلقِ، وأنَّهم جعلوا أمرَهم في أديانِهم قِطَعًا وتَقَسَّموه بينَهم؛ فهذا موحِّدٌ، وهذا يهودِيٌّ، وهذا نصرانِيٌّ، وهذا مجوسِيٌّ، وهذا عابدُ وثنٍ).

((تفسير الشوكاني)) (3/503).

وقال ابن عاشور: (ويجوزُ أنْ تكونَ الضَّمائرُ عائدةً إلى أُمَمِ الرُّسلِ).

((تفسير ابن عاشور)) (17/141).

وممن ذهب إلى ذلك: ابنُ كثير.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (5/372).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: 530).

وقيل: المرادُ: أهلُ الكتابِ.

واختاره ابنُ أبي زمنين، وقصَره الرسعني على اليهودِ.

يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (3/160)، ((تفسير الرسعني)) (4/666).

(119) قال الواحدي: (الصَّحيحُ أنَّ هذا إخبارٌ عن جميعِ مُخالفي شريعةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ يقولُ: اختَلَفوا في الدينِ فصاروا فيه فِرَقًا وأحزابًا.

ويجوزُ أن يكونَ هذا الاختلافُ راجعًا إلى اختلافِ أهلِ كُلِّ مِلَّةٍ، كاختلافِ اليَهودِ فيما بينَهم، واختلافِ النَّصارى، وهذا هو الظَّاهِرُ.

ويجوز أن يرجعَ إلى مخالفَتِهم دينَ الحَقِّ).

((البسيط)) (15/188).

كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ.

أي: كُلُّ أولئك المتفرّقِينَ المُختَلِفينَ في دينِ اللهِ صائِرونَ إلينا يومَ القيامةِ، فنحكُمُ بينهم ونُجازيهم على أعمالِهم؛ إنْ خَيرًا فخَيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ.

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ [الأنعام: 159].

فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (94).

فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ.

أي: فمَن يعمَلْ مِن[120] الأعمالِ الصَّالحةِ وهو مُؤمِنٌ باللهِ ورُسُلِه، والحالُ أنَّه مُوَحِّدٌ لله تعالى مُخلِصٌ له في عَمَلِه؛ فلن يجحَدَ اللهُ عَمَلَه ولن يُضِيعَه، بل يُثيبُه عليه يومَ القيامةِ.

---

(120) قال الواحدي: (قال صاحِبُ النظمِ [أبو علي الجُرْجاني]: «مِنْ» هاهنا للتَّبعيضِ، أي: ومَن يعمَلْ شَيئًا مِن الصالحات، أي: مِن أداءِ الفَرائضِ، وغيرِها مِن صِلةِ الرَّحِمِ، ونَصرِ المظلومِ، ومَعونةِ الضَّعيفِ، ونحو ذلك من أعمالِ البِرّ). ((البسيط)) (15/90).

وقال القرطبيُّ: («مِنْ» للتبعيضِ لا للجِنسِ؛ إذْ لا قُدرةَ للمُكَلَّفِ أن يأتيَ بجَميعِ الطَّاعاتِ كُلِّها، فَرضِها ونَفْلِها). ((تفسير القرطبي)) (11/339).

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا * أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا [الكهف: 30، 31].

وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ.

أي: ونحن نكتُبُ أعمالَه الصَّالِحةَ كُلَّها، صَغيرَها وكَبيرَها، لا نَترُكُ منها شَيئًا، وما كَتَبْناه غيرُ ضائعٍ، بل هو باقٍ لصاحِبِه؛ لِنُطلِعَه عليه يومَ الجَزاءِ، ونجازيَه على ما قدَّمَ.(121)

(121) قال الواحدي: (المعنى: نأمُرُ الحَفَظةَ بأن يكتُبوا لذلك العامِلِ ما عَمِلَ مِن الخيرِ؛ لنُجازيَه به).
((البسيط)) (191/15).
وقال السعدي: (وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ أي: مُثبِتونَ له في اللَّوحِ المحفوظِ، وفي الصُّحُفِ التي مع الحَفَظةِ).
((تفسير السعدي)) (ص: 530، 531).

سورةُ الأنْبياءِ

الآيات (95–100)

وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (95) حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ
كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (96) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا
وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (97) إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ
جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (98) لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (99) لَهُمْ
فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (100)

غريب الكلمات:

حَدَبٍ: أي: مَكانٍ مُرتَفِعٍ مِن الأرضِ، وأصلُ (حدب): يَدُلُّ على ارتِفاعِ الشَّيءِ.

يَنْسِلُونَ: أي: يُسرِعونَ؛ مِن النَّسَلانِ: وهو مُقارَبةُ الخَطْوِ مع الإسراعِ، وأصلُ (نسل): يَدُلُّ على انسِلالِ شَيءٍ بسُرعةٍ.

شَاخِصَةٌ: أي: مُرتَفِعةُ الأجفانِ، لا تكادُ تَطرِفُ مِن هَولِ ما هم فيه، وأصلُ (شخص): يدُلُّ على ارتِفاعٍ في شَيءٍ.

حَصَبُ جَهَنَّمَ: أي: حَطَبُها وما أُلقِيَ فيها، وكلُّ شَيءٍ أَلقيتَه في نارٍ فهو حصبٌ، وأصلُه مِن الحَصباءِ، وهي: الحَصى.

وَارِدُونَ: أي: داخِلونَ، وأصلُ (ورد): يَدُلُّ على الموافاةِ إلى الشَّيءِ.

زَفِيرٌ: الزَّفيرُ: إخراجُ النَّفَسِ بقُوَّةٍ وشِدَّةٍ مِن الهَمِّ والكَربِ، وهو بمَنزلةِ ابتداءِ صَوتِ الحِمارِ بالنَّهيقِ، وأصلُ (زفر): يدلُّ على صَوتٍ.

تفسير الآيات:

وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (95).

أي: ومُمتَنِعٌ على قَريةٍ أهلَكْناها أن يَرجِعَ أهلُها.(122)

---

(122) قيل: المعنى: ممتَنِعٌ على قريةٍ أهلَكْناها أن يَرجِعَ أهلُها بعد مَوتِهم إلى الدُّنيا.

وممن اختار هذا المعنى: الواحدي، وابنُ كثير، والسعدي.

يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: 723)، ((تفسير ابن كثير)) (372/5)، ((تفسير السعدي)) (ص: 531).

وممن ذهب إلى هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، وعكرمةُ، وقتادةُ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (395/16)، ((تفسير ابن الجوزي)) (212/3).

وذهب ابنُ جرير والنحَّاس إلى أن المعنى: ومُمتَنِعٌ على أهل قرية أهلكناهم بالطَّبعِ على قُلوبِهم أنَّهم يتوبونَ ويَرجِعونَ عن كُفرِهم.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (395/16 – 397)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (56/3، 57).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (212/3)، ((تفسير ابن كثير)) (372/5).

وإلى مِثلِ ذلك ذهب الزمخشـريُّ، إلَّا أنه قدَّر المعنى: وممتنعٌ على قريةٍ عَزَمْنا على إهلاكِها أو قَدَّرْنا إهلاكَها أنَّهم يتوبون ويَرجِعونَ عن كُفرِهم إلى أن تقومَ القيامة، فحينئذٍ يتوبون حين لا تنفَعُ التوبة ويندَمونَ.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (134/3).

وذهب الزجاجُ إلى أن المعنى: حرامٌ على قريةٍ أهلكناها أن نتقبَّلَ منهم عملًا؛ لأنَّهم لا يَرجِعونَ، أي: لا يتوبونَ.

يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (405/3).

وقيل: المعنى: وممتَنِعٌ على الكَفَرةِ المُهلَكين في الدُّنيا بالموتِ أنَّهم لا يرجعونَ إلى الله، بل هم راجِعونَ ومَبعوثونَ يوم القيامةِ.

وهذا المعنى: جَوَّزه ابن عطية، وذهب إليه البقاعي.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (99/4)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (480/12).

في قوله تعالى: ﴿وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون﴾ تأويلان: الأول: أن معناه: وحتمٌ على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون إلى الدنيا.

الثاني: أن معناه: وجب عليهم ألا يتوبوا ويرجعوا إلى الإيمان.

كما قال تعالى: وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ * قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ [الأنبياء: 11 – 14].

حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (96).

حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ.

أي: حتى إذا فُتِحَ السَّدُّ الذي حُبِسَ وراءَه قبيلتا يأجوجَ ومأجوجَ، فخَرَجوا منه.[123]

كما قال تعالى: قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا * قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ [الكهف: 94 – 99].

---

(123) قال الواحدي: (معنى فَتحِهما: إخراجُهما عن السَّـدِّ الذي جُعِلا وراءَه، وكأنَّهما قُيِّدا بذلك السَّـدِّ، فإذا ارتفَعَ السَّـدُّ انفتَحا).

((الوسيط)) (252/3).

قال ابنُ كثير: (هم مِن نَسلِ نوحٍ مِن أولادِ يافثَ؛ أبي التُّركِ، والتُّركُ شِرذَمةٌ منهم، تُرِكوا مِن وراء السَّدِّ الذي بناه ذو القرنينِ).

((تفسير ابن كثير)) (372/5).

وعن زَيْنَبَ بنتِ جَحشٍ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ النبيَّ - ﷺ -: ((دخَلَ عليها فَزِعًا يقولُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، ويلٌ للعَرَبِ مِن شَرٍّ قد اقتَرَب، فُتِحَ اليومَ مِن رَدمِ[124] يأجوجَ ومأجوجَ مِثلُ هذه -وحَلَّقَ بإصبَعِه الإبهامِ والتي تليها- فقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، أنَهلِكُ وفينا الصَّالِحونَ؟! قال: نَعَم، إذا كَثُرَ الخَبَثُ))[125]. [126]

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ - ﷺ - قال: ((فُتِحَ اليومَ مِن رَدمِ يأجوجَ ومأجوجَ مِثلُ هذه -وعَقَد بيدَه تِسعينَ))[127]. [128]

(124) الرَّدمُ: السَّدُّ.

يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: 121).

(125) الخَبَثُ: الفُسُوقُ والفُجورُ.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (3/18).

(126) رواه البخاري (3346) واللفظ له، ومسلم (2880).

(127) عَقدُ التِّسعينَ: مِن مُواضَعاتِ الحِسابِ، وهو أن تجعَلَ رأسَ الإصبَعِ السَّبابةِ في أصلِ الإبهامِ، وتضُمَّها حتى لا يَبِينَ بينهما إلَّا خَلَلٌ يَسيرٌ.

يُنظر: ((النهاية)) الأثير (216/2).

(128) رواه البخاري (3347)، ومسلم (2881) واللفظ له.

وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ.

أي: ويأجوجُ ومأجوجُ عندَ خُروجِهم يُقْبِلونَ مِن كُلِّ مَكانٍ مُرتَفِعٍ، فيَمشُونَ مُسرِعِينَ(129) للإفسادِ في الأرضِ.(130)

عن النَّوَّاسِ بنِ سَمعانَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم -في آخرِ حديثِ الدَّجَّالِ الطويلِ: ((ويَبعَثُ اللهُ يأجوجَ ومأجوجَ، وهم مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلونَ، فيمُرُّ أوائِلُهم على بُحَيرةِ طَبَريَّةَ،

---

(129) اختلف السلفُ في المعنيّ بقوله: ﴿وهم من كل حدب ينسلون﴾؛ فقيل: هم جميع الناس، يخرجون من قبورهم إلى الحشر.
وقيل: هم يأجوج ومأجوج.
وقد رجّح ابنُ جرير (١٦/ ٤٠٦ بتصرف) مستندًا إلى السنة القولَ الثاني، فقال: «وذلك للخبر الذي حدَّثنا به ...
عن أبي سعيد الخدري، قال: سمعتُ رسول الله – ﷺ – يقول: «يُفتَح يأجوج ومأجوج، يخرجون على الناس كما قال الله: ﴿من كل حدب ينسلون﴾، فيغشون الأرض».
وعن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله – ﷺ – فيما يُذكر عن عيسى ابن مريم، قال: «قال عيسى: عهِد إليَّ ربي: أنّ الدَّجال خارج، وأنّه مُهبطي إليه، فذكر أنّ معه قضيبين، فإذا رآني أهلكه الله.
قال: فيذوب كما يذوب الرصاص، حتى إنّ الشجر والحجر ليقول: يا مسلم، هذا كافِرٌ فاقتله، فيهلكهم الله –تبارك وتعالى–، ويرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم، فيستقبلهم يأجوج ومأجوج مِن كل حدب ينسلون، لا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه»».
(130) قال الواحدي: (المعنى: وهم مِن كلِّ شيءٍ مِن الأرضِ يُسرِعونَ، يعني: أنَّهم يتفرَّقونَ في الأرضِ، فلا ترى أكمةً إلَّا وقَومٌ منهم يَهبِطونَ منها مُسرِعينَ).
((الوسيط)) (252/3).
وقال السَّعدي: (ينفَتِحُ السَّدُّ عنهم، فيَخرُجونَ إلى النَّاسِ في هذه الحالةِ والوَصفِ الذي ذكره اللهُ مِن كُلِّ مكانٍ مُرتَفِعٍ، وهو الحَدَبُ، يَنْسِلُونَ أي: يُسرِعونَ.
وفي هذا دَلالةٌ على كثرَتِهم الباهرةِ، وإسراعِهم في الأرضِ؛ إمَّا بذواتِهم، وإمَّا بما خلَقَ اللهُ لهم من الأسبابِ التي تقرِّبُ لهم البعيدَ، وتُسَهِّلُ عليهم الصَّعبَ، وأنَّهم يَقهَرونَ النَّاسَ، ويعلُونَ عليهم في الدُّنيا، وأنَّه لا يَدَ لأحَدٍ بقِتالِهم).
((تفسير السعدي)) (ص: 531).

فَيَشرَبونَ ما فيها، ويمُرُّ آخِرُهم فيَقولونَ: لقد كان بهذه مَرَّةً ماءٌ! ويُحصَرُ[131] نبيُّ اللهِ عيسى وأصحابُه، حتى يكونَ رأسُ الثَّورِ لأحَدِهم خيرًا مِن مئةِ دينارٍ لأحَدِكم اليومَ! فيَرغَبُ[132] نبيُّ اللهِ عيسى وأصحابُه، فيُرسِلُ اللهُ عليهم النَّغفَ[133] في رِقابِهم، فيُصبِحونَ فَرْسَى[134] كمَوتِ نَفْسٍ واحدةٍ، ثمَّ يَهبِطُ نبيُّ اللهِ عيسى وأصحابُه إلى الأرضِ، فلا يَجِدونَ في الأرضِ مَوضِعَ شِبرٍ إلَّا ملأه زَهَمُهم[135] ونَتْنُهم، فيَرغَبُ نبيُّ اللهِ عيسى وأصحابُه إلى اللهِ، فيُرسِلُ اللهُ طَيرًا كأعناقِ[136] البُختِ فتَحمِلُهم فتَطرَحُهم حيثُ شاء اللهُ، ثمَّ يُرسِلُ اللهُ مَطرًا لا يَكُنُّ منه بيتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ،[137] فيَغسِلُ الأرضَ حتى يترُكَها كالزَّلَفةِ،[138]

---

(131) يُحصَرُ: أي: يُحبَسُ في جبلِ الطورِ.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا القاري (3463/8).
(132) فيَرغَبُ -أي: إلى اللهِ- أي: يدعو.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (3463/8).
(133) النَّغَفُ: دودٌ يكونُ في أنوفِ الإبِلِ والغَنَمِ.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (69/18).
(134) فَرْسَى: أي: قَتْلَى.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (69/18).
(135) زَهَمُهم: أي: رائحتُهم الكريهةُ.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (69/18).
(136) البُختِ: نَوعٌ من الإبِلِ، أي: طيرًا أعناقُها في الطُّولِ والكِبَرِ كأعناقِ البُختِ.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (3464/8).
(137) بيتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ: المَدَرُ: جَمْعُ مَدرةٍ، وهي: اللَّبِنةُ، والمرادُ به هنا البُيوتُ المُحكَمةُ المَبنيَّةُ مِن الأحجارِ والطُّوبِ واللَّبِنِ؛ كبُيوتِ المُدُنِ والقُرى.
والوَبَرُ: شَعرُ الإبِلِ، والمرادُ به هنا البُيوتُ غيرُ المُحكَمةِ؛ كبُيوتِ البوادي وأهلِ الخِيامِ.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (116/1)، ((الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم)) محمد الأمين الهَرَري (259/26).
(138) كالزَّلَفَةِ: أي: كالمِرْآةِ، شَبَّهَها بالمِرآةِ في صَفائِها ونَظافَتِها.

ثمَّ يُقالُ للأرضِ: أنبتي ثمرَتَك، ورُدِّي بركَتَك، فيومَئذٍ تأكُلُ العِصابةُ مِن الرُّمَّانةِ، ويَستَظِلُّونَ بِقِحْفِها،[139] ويُبارَكُ في الرِّسْلِ[140] حتى إنَّ اللِّقْحةَ[141] مِن الإبِلِ لَتكفي الفِئامَ[142] مِن النَّاسِ! واللِّقْحةَ مِن البَقَرِ لَتَكفي القبيلةَ مِن النَّاسِ! واللِّقْحةَ مِنَ الغَنَمِ لَتكفي الفَخْذَ مِن النَّاسِ! فبينما هم كذلك إذ بَعَثَ اللهُ ريحًا طَيِّبةً، فتأخُذُهم تحتَ آباطِهِم، فتَقبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤمِنٍ وكُلِّ مُسلِمٍ، ويبقَى شِرارُ النَّاسِ، يَتَهارجونَ[143] فيها تَهارُجَ الحُمُرِ، فعليهم تقومُ السَّاعةُ)).[144]

وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (97).

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (8/3465).

(139) بِقِحْفِها: أي: بِقِشْرِها.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (8/3465).

(140) الرِّسْلِ: أي: اللَّبَنِ.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (8/3465).

(141) اللِّقْحَةَ: أي: النَّاقةَ الحَلُوب.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (8/3465).

(142) الفِئامَ: أي: الجماعةَ.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (8/3465).

(143) يَتهارَجونَ: أي: يُجامِعُ الرِّجالُ النِّساءَ عَلانِيَةً بحَضرةِ النَّاسِ، كما يفعَلُ الحَميرُ، ولا يكتَرِثونَ لذلك! وقيل: يَختَلِطونَ ويتخاصَمونَ ويتقاتَلونَ.

يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (13/19)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (8/3466).

(144) رواه مسلم (2937).

وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ.

أي: حتى إذا فُتِحت يأجوجُ ومأجوجُ اقترَبَ مَجيءُ يومِ القيامةِ الذي وعَدَ اللهُ بإتيانِه وأن يَبعَثَ فيه عِبادَه مِن قُبورِهم للحِسابِ والجَزاءِ؛[145] فإنَّه إذا وُجِدَت تلك الأهوالُ والفِتَنُ والمِحَنُ الواقِعةُ في آخِرِ الزَّمانِ، فقد اقترَبت السَّاعةُ.[146]

---

(145) وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالوعدِ الحَقِّ هنا: يومُ القيامة: ابنُ جرير، والواحدي، والقرطبي، وابنُ كثير، والسعدي.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/408)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 724)، ((تفسير القرطبي)) (11/342)، ((تفسير ابن كثير)) (5/377)، ((تفسير السعدي)) (ص: 531).
وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس، وابنُ زيد، والربيعُ.
يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (8/2468)، ((البسيط)) للواحدي (15/203)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (5/678).
(146) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/408، 409)، ((تفسير القرطبي)) (11/342)، ((تفسير ابن كثير)) (5/377)، ((تفسير السعدي)) (ص: 531).
قال ابنُ الجوزي: (فإن قيل: أين جوابُ حَتَّى إِذَا؟ ففيه قولان: أحدُهما: أنَّه قَولُه تعالى: وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ والواوُ في قوله تعالى: وَاقْتَرَبَ زائدةٌ، قاله الفَرَّاءُ.
قال: ومِثلُه: حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا [الزمر: 73]، وقولُه تعالى: فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ [الصافات: 103- 104] المعنى: ناديناه...
والثاني: أنَّه قَولٌ مَحذوفٌ في قولِه: يَا وَيْلَنَا فالمعنى: حتى إذا فُتِحت يأجوجُ ومأجوجُ واقترَب الوَعدُ، قالوا: يا ويلَنا.
قال الزجَّاج: هذا قولُ البصريينَ).
((تفسير ابن الجوزي)) (3/213).
ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (2/211)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: 158)، ((معاني القرآن)) للزجاج (3/405).
وممن قال بالمعنى الأولِ: الفراءُ، وابنُ قتيبة، وابنُ جرير، والواحدي.
يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (2/211)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: 158)، ((تفسير ابن جرير)) (16/408، 409)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 724).
وذهب ابنُ عطية، وابن جزي إلى أنَّ جوابَ إِذَا قَولُه: فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ.
يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (4/100)، ((تفسير ابن جزي)) (2/29).

فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا.

أي: فإذا أبصارُ الكُفَّارِ مَفتوحةٌ لا تَطرِفُ؛ مِن شِدَّةِ ما يَرَونَه مِن أهوالٍ وأمورٍ عِظامٍ.

كما قال تعالى: إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ [إبراهيم: 42– 43].

يَاوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا.

أي: يقولونَ: يا وَيلنَا قد كُنَّا في غَفلةٍ مِن هذا اليَومِ.

بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ.

أي: بلْ كُنَّا ظالِمينَ لأنفُسِنا بكُفرِنا بربِّنا، ومَعصِيَتِنا له، وإعراضِنا عن آياتِه، وعبادَتِنا غيرَه.

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (98).

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ.

أي: يُقالُ لهم: إنَّكم –أيُّها المُشرِكونَ– وما تَعبُدونَ مِن دُونِ اللهِ وَقودُ جَهنَّمَ، يُرمى بكم جميعًا في النَّارِ.(147)

قال ابن عطية: (وهذا هو المعنى الذي قُصِد ذِكرُه؛ لأنَّه رُجوعُهم الذي كانوا يُكَذِّبونَ به وحَرُمَ عليهم امتِناعُه).

((تفسير ابن عطية)) (100/4).

(147) اخْتُلِفَ في تفسير قوله: ﴿حصب جهنم﴾ على ثلاثة أقوال: الأول: أي: وقود جهنم وشجرها.

كما قال تعالى: فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ [البقرة: 24].

وقال سُبحانه: احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ [الصافات: 22، 23].

أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ.

أي: أنتم -أيُّها المُشرِكونَ- داخِلونَ جهنَّمَ مع آلهَتِكم التي كُنتُم تَعبُدونَها مِن دُونِ اللهِ.

لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (99).

لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا.

أي: لو كانت تلك الآلِهةُ المَعبودةُ مِن دُونِ اللهِ آلِهةً حَقًّا كما يَزعُمُ عابِدوها، لَمَا دخَلَ العابِدونَ والمَعبودونَ جهنَّمَ، ولَمَنَعت تلك الآلهةُ عابِديها مِن دُخولِها.

الثاني: أي: حطب جهنم.

الثالث: أي: تحصب جهنم بهم، يعني: تُرمى.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٦/ ٤١٣ بتصرف) مستندًا إلى القراءة، واللغة، والنظائر القولَ الثالث، فقال: «فإذا كان الصواب من القراءة في ذلك قراءة: ﴿حصب جهنم﴾، وكان المعروف مِن معنى الحصب عند العرب: الرمي، من قولهم: حصبت الرجل: إذا رميته، كما قال -جل ثناؤه-: ﴿إنا أرسلنا عليهم حاصبا﴾ [القمر: ٣٤]؛ كان الأَوْلى بتأويل ذلك قول من قال: معناه: أنهم تقذف جهنم بهم، ويرمى بهم فيها».

ثم قال: «وقد ذكر أن الحصب -في لغة أهل اليمن-: الحطب، فإن يكن ذلك كذلك فهو أيضًا وجه صحيح، وأما ما قلنا من أن معناه الرمي فإنه في لغة أهل نجد».

وعلّق ابنُ كثير (٩/ ٤٤٨) على مجموع هذه الأقوال بقوله: «والجميع قريب».

وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ.

أي: وكلٌّ مِنَ الآلهةِ الباطِلةِ وعابِديها في جهَنَّمَ ماكِثونَ.

لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (100).

لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ.

أي: للمُشرِكينَ وآلهَتِهم[148] في جهنَّمَ زَفيرٌ[149] مِن شِدَّةِ العَذابِ.

كما قال تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ [هود: 106].

(148) قال ابن عطية: (الضَّميرُ في لَهُمْ عائدٌ على من يَعقِلُ مِمَّن تُوُعِّدَ).

((تفسير ابن عطية)) (101/4).

وقال البقاعي: (لَهُمْ أي: لِمَن فيه الحياةُ مِن المذكورينَ: العابدينَ مُطلَقًا، والمعبودينَ الرَّاضينَ كفِرعَونَ).

((نظم الدرر)) (483/12).

وقال الزمخشري: (إذا كانوا هم وأصنامُهم في قَرَنٍ واحدٍ، جاز أن يقال: لهم زَفيرٌ، وإن لم يكُنِ الزَّافرونَ إلَّا هم دونَ الأصنامِ؛ للتَّغليبِ، ولِعَدَمِ الإلباسِ).

((تفسير الزمخشري)) (136/3).

(149) قال ابن عطية: («الزفيرُ» صَوتُ المعَذَّبِ، وهو كنهيقِ الحَميرِ وشِبهُه، إلَّا أنَّه مِنَ الصَّدرِ).

((تفسير ابن عطية)) (101/4).

وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ.

أي: وهم في جهنَّمَ صُمٌّ لا يَسمَعونَ شَيئًا.(150)

(150) ممن اختار أنَّ المرادَ: أنَّهم لا يسمعونَ، فهم يُسلبونَ حاسَّةَ السمعِ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ -في ظاهرِ كلامِه، والنسفي، وابن عاشور، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (94/3)، ((تفسير ابن جرير)) (414/16)، ((تفسير النسفي)) (421/2)، ((تفسير ابن عاشور)) (153/17)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (128/4، 247).

قيل: لأنَّ في سَماعِ الأشياءِ رَوحًا وأُنسًا، فمَنَع اللهُ الكفَّارَ ذلك في النَّارِ.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (345/11).

وقيل: ليُمنَعوا راحةَ التَّأسِّي بالمُشارِكِ لهم في العذابِ؛ مُبالغةً في عذابِهم، ويكونُ هذا كقَولِه عزَّ وجَلَّ: وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ [الزخرف: 39]؛ فإنَّهم حُرِموا هذا القَدْرَ مِن الرَّاحةِ، ولا شُبهةَ بأنَّ التأسِّيَ يُهَوِّنُ المُصيبةَ ويُخَفِّفُها.

يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (674/4).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: أنَّهم لا يسمعونَ ما يَسُرُّهم: النحَّاس، ومكي بن أبي طالب.

يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (58/3)، ((الهداية)) لمكي (4821/7).

وقيل: المرادُ: لا يسمعُ بعضُهم زفيرَ بعضٍ؛ لشدةِ الهولِ، وفظاعةِ العذابِ.

وممن اختاره: أبو السعودِ، والشوكاني.

يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (87/6)، ((تفسير الشوكاني)) (506/3).

سورةُ الأنْبياءِ

الآيات (101–105)

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (101) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (102) لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (103) يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (104) وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (105)

غريب الكلمات:

الْحُسْنَى: أي: الجنَّةُ أو السَّعادةُ، تأنيثُ الأحسنِ، والحُسْنُ ضِدُّ القُبحِ، وهو عبارةٌ عن كلِّ مُبهجٍ مرغوبٍ فيه.

حَسِيسَهَا: أي: صَوْتَها وحَرَكةَ تلَهُّبِها، والحَسيسُ والحسُّ: الحَرَكةُ والصَّوتُ تَسمَعُه مِنَ الشَّيءِ الذي يمُرُّ قريبًا منك، وأصلُه مِنَ الحِسِّ، وهو مُطلَقُ الصَّوتِ، أو الخَفِيُّ منه.

نَطْوِي: الطَّيُّ: ضِدُّ النَّشرِ، وهو ثَنْيُ الشَّيءِ، أو ردُّ بَعضِه على بَعضٍ، وأصلُ (طوي): يَدُلُّ على إدراجِ شَيءٍ حتى يُدرَجَ بَعضُه في بَعضٍ.

السِّجِلِّ: أي: الصَّحيفةِ التي فيها الكِتابُ، يعني: المكتوبَ، والسِّجِلُّ: اسمٌ مُشتَقٌّ مِن المُساجَلةِ، وهي: المُكاتَبةُ.

الزَّبُورِ: أي: الكُتُبِ المُنَزَّلةِ مِن السَّماءِ، ويُطلَقُ الزَّبورُ على الكِتابِ المنزَّلِ على داودَ عليه السَّلامُ، وأصلُ (زبر): يدُلُّ على قِراءةٍ وكتابةٍ.

تفسير الآيات:

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (101).

سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((آيةٌ في كِتابِ اللهِ لا يَسألُني النَّاسُ عنها، ولا أدري أعَرَفوها فلا يَسألوني عنها، أم جَهِلوها فلا يَسألوني عنها؟! قيل: وما هِيَ؟ قال: آيةٌ لَمَّا نَزَلَت: إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ [الأنبياء: 98] شَقَّ ذلك على أهلِ مَكَّةَ، وقالوا: شَتَمَ مُحَمَّدٌ آلهتَنا، فقام ابنُ الزِّبَعْرَى فقال: ما شأنُكم؟ قالوا: شَتَم مُحَمَّدٌ آلهتَنا، قال: وما قال؟ قالوا: قال: إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ [الأنبياء: 98] ، قال: ادعُوه لي، فدُعِيَ مُحَمَّدٌ – ﷺ –، فقال ابنُ الزِّبَعْرَى: يا محمَّدُ، هذا شيءٌ لآلهتِنا خاصَّةً أم لكُلِّ مَن عُبِدَ مِن دُونِ اللهِ؟ قال: بل لكُلِّ مَن عُبِدَ مِن دُونِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، فقال: خَصَمْناه ورَبِّ هذه البَنِيَّةِ! يا مُحَمَّدُ، ألستَ تزعُمُ أنَّ عيسى عَبدٌ صالِحٌ، وعُزَيرًا عَبدٌ صالِحٌ، والملائِكةَ عِبادٌ صالِحونَ؟ قال: بلى، قال: فهذه النَّصارى يَعبُدونَ عيسى، وهذه اليَهودُ تَعبُدُ عُزَيرًا، وهذه بنو مُلَيحٍ تَعبُدُ المَلائِكةَ، قال: فضَجَّ أهلُ مَكَّةَ، فنزَلَت: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى –عيسى وعُزَيرٌ والملائِكةُ– أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ.

قال: ونزَلت: وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ [الزخرف: 57]، وهو الصَّحيحُ)).(151)

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (101).

---

(151) أخرجه الطحاويُّ في ((شرح مشكل الآثار)) (986)، والطبراني (153/12) (12739).

حَسَّنَه ابن حجر في ((موافقة الخُبْر الخَبَر)) (172/2)، وصحَّح إسنادَه ابنُ القيمِ في ((شفاء العليل)) (123/1).

قال ابنُ القيم: (هذا الإيرادُ الذي أورده ابنُ الزِّبَعْرَى...

إنَّما كان مِن جهةِ القياسِ والعمومِ المَعنويِّ الذي يعُمُّ الحُكمُ فيه بعمومِ عِلَّتِه، أي: إنْ كان كونُه مَعبودًا يُوجِبُ أن يكونَ حَصَبَ جَهنَّمَ، فهذا المعنى بعَينِه موجودٌ في الملائكةِ وعُزَيرٍ والمسيحِ! فأُجيبَ بالفارِقِ، وذلك مِن وُجوهٍ: أحدُها: أنَّ الملائكةَ والمسيحَ وعُزَيرًا: ممَّن سبَقَت لهم مِن الله الحُسنى؛ فهم سُعداءُ لم يفعَلوا ما يَستوجِبونَ به النَّارَ، فلا يُعذَّبونَ بعبادةِ غيرِهم، مع بُغضِهم ومعاداتِهم لهم...

الفرقُ الثاني: أنَّ الأوثانَ حِجارةٌ غيرُ مُكلَّفةٍ ولا ناطقةٍ، فإذا حُصِبَت بها جهنَّمُ إهانةً لها ولعابِدِيها، لم يكُنْ في ذلك [عذابُ] مَن لا يستحِقُّ العذاب، بخِلافِ الملائكةِ والمسيحِ وعُزَيرٍ؛ فإنَّهم أحياءٌ ناطِقونَ، فلو حُصِبَت بهم النَّارُ كان ذلك إيلامًا وتعذيبًا لهم.

الثَّالثُ: أنَّ مَن عَبَد هؤلاء بزَعمِه فإنَّه لم يَعبُدْهم في الحقيقةِ؛ فإنَّهم لم يَدْعُوا إلى عبادتِهم، وإنَّما عَبَد المُشركون الشَّياطينَ وتوهَّموا أنَّ العبادةَ لهؤلاء؛ فإنَّهم عَبَدوا بزَعْمِهم مَن ادَّعى أنَّه معبودٌ مع الله، وأنَّه معه إلهٌ، وقد برَّأ اللهُ سُبحانَه ملائكتَه والمسيحَ وعُزيرًا مِن ذلك، وإنَّما ادَّعى ذلك الشَّياطينُ، وهم بزَعمِهم يعتَقِدونَ أنَّهم يَرضَونَ بأن يكونوا معبودين مع اللهِ تعالى، ولا يرضى بذلك إلَّا الشَّياطينُ؛ ولهذا قال سبُحانَه وتعالى: وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ [سبأ: 40، 41]، وقال تعالى: أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ [يس: 60]).

((شفاء العليل)) (ص: 26).

ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (381/5).

أي: إنَّ المُؤمِنينَ الذين سَبَق في عِلْمِنا منذُ الأزَلِ أنَّهم من أهلُ السَّعادةِ بدُخولِ الجَنَّةِ،[152] مُبعَدونَ عن جَهَنَّم يومَ القيامةِ، فلا يَدخُلونَها، ولا يقرَبونَ منها، وإنْ عَبَدَهم بَعضُ المُشرِكينَ بغَيرِ رِضاهم واختيارِهم.

كما قال تعالى: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [يونس: 26].

لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (102).

لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا.

أي: لا يَسمَعُ المُؤمِنونَ وهم في الجَنَّةِ صَوتَ جَهنَّمَ وإحراقِها الأجسادَ؛ لِبُعدِهم الشَّديدِ عنها.[153]

---

(152) اختلف السلف فيمن عنى الله بقوله: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾؛ فقال بعضهم: هو كل إنسان كتبه الله من السعداء المبعدين عن النار.

وقال آخرون: بل عنى بذلك كل مَن عُبد من دون الله وهو لله مطيع، ولعبادة من عبده كاره، كعيسى وعزير وغيرهم.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٦/ ٤١٩) مستندًا إلى ظاهر القرآن والسياق القول الثاني، وعلّل ذلك بقوله: «لأن قوله -تعالى ذِكْرُه-: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ ابتداء كلام محقق لأمر كان يُنكِرُه قوم، على نحو الذي ذكرنا في الخبر عن ابن عباس، فكأنّ المشركين قالوا لنبي الله - ﷺ - إذ قال لهم: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ ما الأمر كما تقول؛ لأنّا نعبد الملائكة، ويعبد آخرون المسيح، وعزيرًا.

فقال - عز وجل - رادًّا عليهم قولهم: بل ذلك كذلك، وليس الذين سبقت لهم منا الحسنى هم عنها مبعدون؛ لأنهم غير معنيين بقولنا: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾».

قال ابنُ عاشور: (جُملةُ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا بيانٌ لمعنى مُبْعَدُونَ، أي: مُبعَدونَ عنها بُعدًا شَديدًا بحيثُ لا يَلفَحُهم حَرُّها، ولا يُرَوِّعهم مَنظَرُها، ولا يَسمَعونَ صَوتَها، والصَّوتُ يَبلُغُ إلى السَّمعِ مِن أبعَدِ ممَّا يبلُغُ منه المرئيُّ.

وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ.

أي: والمُؤمِنونَ فيما تَشتهيه أنفُسُهم مِن نَعيمِ الجَنَّةِ ماكِثونَ، لا يخافونَ زَوالًا عنه، ولا انتِقالًا منه.

لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (103).

لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ.

أي: لا يَحزُنُ المؤمنينَ الفزعُ الأكبَرُ يومَ القيامةِ عِندَ النَّفخِ في الصُّورِ للحَشرِ.[154]

والحسيسُ: الصَّوتُ الذي يبلُغُ الحِسَّ، أي: الصَّوتُ الذي يُسمَعُ مِن بَعيدٍ، أي: لا يَقربونَ مِنَ النَّارِ، ولا تَبلُغُ أسماعَهم أصواتُها، فهم سالِمونَ مِنَ الفَزَعِ مِن أصواتِها، فلا يَقرَعُ أسماعَهم ما يُؤلِمُها).

((تفسير ابن عاشور)) (156/17).

(154) اختُلف في الفزع الأكبر أي شيء هو؟ على أربعة أقوال: الأول: إذا أطبقت النار على أهلها.

الثاني: بل ذلك حين يؤمر بالعبد إلى النار.

الثالث: ذلك النفخة الآخرة.

الرابع: ذلك حين يذبح الموت.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٦/ ٤٢٢) مستندًا إلى الدلالة العقلية القول الثالث، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قولُ مَن قال: ذلك عند النفخة الآخرة.

وذلك أنّ مَن لم يحزنه ذلك الفزع وآمن منه فهو مما بعده أحرى أن لا يفزع، وأنّ مَن أفزعه ذلك فغير مأمون عليه الفزع مما بعده».

وقد رجّح ابنُ عطية (٦/ ٢٠٥) أن الفزع الأكبر: «عامٌّ في كل هول يكون في يوم القيامة، فكأن يوم القيامة بجملته هو الفَزَعُ الأَكْبَرُ، وإن خصص شيءٌ من ذلك فيجب أن يقصد الأعظم هوله».

ثم علّق ابن عطية (٦/ ٢٠٥) على القول الثاني والثالث، فقال: «وهذا وما قبله مِن الأوقات أشبه أن يكون فيها الفَزَعُ؛ لأنها وقت لرجم الظنون وتعرض الحوادث».

ثم علّق على القولين الأول والرابع، فقال: «فأما وقت ذبح الموت ووقع طبق جهنم فوقت قد حصل فيه أهل الجنة في الجنة، فذلك فزع بيّن أنه لا يصيب أحدًا مِن أهل الجنة فضلًا عن الأنبياء، اللهم إلا أن يريد: لا يحزنهم الشيء الذي هو عند أهل النار فزع أكبر.

كما قال تعالى: وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ [النمل: 87].

وقال سُبحانَه: فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا [الإنسان: 11].

وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ.

أي: ويَستَقبِلُ الملائِكةُ المُؤمِنينَ يومَ القيامةِ، فيُهَنِّئونَهم ويُبَشِّرونَهم برَحمةِ اللهِ، ونَيلِ كرامتِه؛ يقولونَ لهم: هذا اليومُ الحاضِرُ هو اليَومُ الذي كُنتُم في الدُّنيا تُوعَدونَ أن يُثيبَكم اللهُ فيه على قيامِكم بطاعتِه.(155)

فأما إن كان فزعًا للجميع فلا بُدَّ مما قلنا مِن أنه قبل دخول الجنة».

قال ابن عاشور: (الفَزَعُ: نُفرةُ النَّفسِ وانقِباضُها مِمَّا تتوقَّعُ أن يحصُلَ لها مِنَ الألمِ، وهو قريبٌ مِن الجَزَعِ.

والمرادُ به هنا: فزَعُ الحشرِ حين لا يَعرِفُ أحَدٌ ما سيؤولُ إليه أمرُه، فيكونونَ في أمنٍ مِن ذلك بطمأنةِ الملائكةِ إيَّاهم، وذلك مُفادُ قَولِه تعالى: وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ فهؤلاء الذين سبقت لهم الحُسنى هم المرادُ مِن الاستثناءِ في قَولِه تعالى: وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ [النمل: 87]).

((تفسير ابن عاشور)) (156/17).

(155) قال الشّنقيطي: (قيل: تَستقبِلُهم على أبوابِ الجَنَّةِ بذلك.

وقيل: عندَ الخروجِ مِن القبورِ).

((أضواء البيان)) (248/4).

وممن قال بالقولِ الأوَّلِ: البغوي، والزمخشري، والقرطبي، والنسفي، والخازن، والشوكاني.

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ زيدٍ، وابنُ السائب، ومجاهد.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (423/16).

((تفسير ابن الجوزي)) (215/3)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (683/5).

وممن قال بالقولِ الثاني: مقاتلُ بنُ سليمان، والواحدي، وابنُ كثير، وجلال الدين المحلي، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (96/3)، ((الوسيط)) للواحدي (253/3)، ((تفسير ابن كثير)) (381/5)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 431)، ((تفسير السعدي)) (ص: 531).

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ [فصلت: 30 – 32].

يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (104).

يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ.

أي: لا يَحزُنُهم الفَزَعُ الأكبَرُ في ذلك اليَومِ الذي نَطْوي فيه السَّمواتِ كما تُطوى الصَّحيفةُ على الكَلامِ المكتوبِ فيها.(156)

ومن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: الحسن.

يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (349/1).

قال القنوجي: (ولا مانِعَ أنَّها تستقبلُهم في الحالينِ).

((تفسير القنوجي)) (376/8).

(156) اختُلِفَ في معنى قوله: ﴿السجل﴾ على ثلاثة أقوال: الأول: أنه اسم ملك.

الثاني: أنه اسم كاتب كان يكتب لرسول الله – ﷺ –.

الثالث: أنه الصحيفة التي يكتب فيها.

ووجّه ابنُ عطية (٦/ ٢٠٦) المعنى على القول الثالث، فقال: «والمعنى ﴿كطي السجل﴾ أي: كما يطوى السجل من أجل الكتاب الذي فيه، فالمصدر مضاف إلى المفعول، ويحتمل أن يكون المصدر مضافًا إلى الفاعل، أي: كما يطوي السجل الكتاب الذي هو فيه، فكأنه قال: يوم نطوي السماء كالهيئة التي فيها طي السجل للكتاب.

ففي التشبيه تَجَوُّز».

كما قال تعالى: وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ [الزمر: 67].

كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ.

أي: كما قدَرْنا على إيجادِ الخلقِ أوَّلَ مرةٍ، كذلك نقدرُ على إعادتِهم، فنبعثُهم أحياءً مِن قبورِهم، ونحشرُهم على مِثلِ هَيئَتِهم حينَ خَرَجوا مِن بُطونِ أُمَّهاتِهم؛ حُفاةً، عُراةً، غَيرَ مختونينَ.(157)

وقد رجّح ابنُ جرير (١٦/ ٤٢٥) مستندًا إلى اللغة القول الثالث، وانتقد مستندًا إلى الواقع القولين الآخرين، فقال: «لأنّ ذلك هو المعروف في كلام العرب، ولا يعرف لنبينا – ﷺ – كاتب كان اسمه السجل، ولا في الملائكة ملك ذلك اسمه».

ووافقه ابنُ كثير (٩/ ٤٥٥ بتصرف) بقوله: «والصحيح عن ابن عباس: أن السجل هي الصحيفة، واختاره ابن جرير؛ لأنه المعروف في اللغة، فعلى هذا يكون معنى الكلام: ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب﴾ أي: على هذا الكتاب، بمعنى: المكتوب، كقوله: ﴿فلما أسلما وتله للجبين﴾ [الصافات: ١٠٣]، أي: على الجبين، وله نظائر في اللغة».

وانتقد ابنُ عطية (٦/ ٢٠٦) القول الأول والثاني بقوله: «وهذا كله وما شاكله ضعيف».

(157) ممَّن اختار هذا المعنى المذكور: ابن جرير، والواحدي، والبغوي، والقرطبي، وابن القيم.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (427/16)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 725)، ((تفسير البغوي)) (320/3)، ((تفسير القرطبي)) (347/11)، ((تحفة المودود بأحكام المولود)) لابن القيم (ص: 207).

قال ابنُ جرير: (فالكافُ التي في قَولِه: كَمَا مِن صِلةِ (نُعِيدُ) تقدَّمت قبلَها، ومعنى الكلامِ: نُعيدُ الخَلْقَ عُراةً حُفاةً غُرْلًا يومَ القيامةِ كما بدَأْناهم أوَّلَ مرَّةٍ في حالِ خلَقْناهم في بُطونِ أمَّهاتِهم.

على اختلافٍ مِن أهلِ التَّأويلِ في تأويلِ ذلك.

وبالذي قُلْنا في ذلك قال جماعةٌ مِن أهلِ التَّأويلِ، وبه الخبَرُ عن رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فلذلك اختَرتُ القَولَ به على غَيرِه).

((تفسير ابن جرير)) (427/16).

ومن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: مجاهدٌ، والسُّدِّي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (427/16)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (2470/8).

قال ابنُ عاشور: (وظاهِرُ ما أفاده الكافُ مِن التَّشبيهِ في قولِه تعالى: كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ أنَّ إعادةَ خَلقِ الأجسامِ شُبِّهت بابتداءِ خَلقِها، ووَجهُ الشَّبَهِ هو إمكانُ كِلَيهما، والقُدرةُ عليهما، وهو الذي سِيقَ له الكلامُ، على أنَّ التَّشبيهَ صالحٌ للمُماثلةِ في غيرِ ذلك.

روى مسلِمٌ عن ابنِ عبَّاسٍ قال: «قام فينا رسولُ الله بمَوعظةٍ، فقال: يا أيُّها النَّاسُ، إنَّكم تُحشَرونَ إلى اللهِ حُفاةً عُراةً غُرْلًا كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ» الحديثَ؛ فهذا تفسيرٌ لبَعضِ ما أفاده التَّشبيهُ، وهو مِن طريقِ الوَحيِ، واللَّفظُ لا يأباه؛ فيَجِبُ أن يُعتبَرَ معنًى للكافِ مع المعنى الذي دَلَّت عليه بظاهِرِ السِّياقِ).

((تفسير ابن عاشور)) (160/17).

وقال أيضًا: (قولُه صلَّى اللهُ عليه وسلم: «يُحشَرُ النَّاسُ يومَ القيامةِ حُفاةً عُراةً غُرْلًا كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ» إنَّما هو تشبيهُ الخَلقِ الثَّاني بالخَلقِ الأوَّلِ؛ لِدَفعِ استبعادِ البَعثِ، كقَولِه تعالى: أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ [ق: 15] ، وقَولِه: وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ [الروم: 27]، فذلك مَوردُ التَّشبيهِ، غيرَ أنَّ التَّشبيهَ لَمَّا كان صالحًا للحَملِ على تمامِ المُشابَهةِ أعلَمَنا النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ ذلك مُرادٌ منه، بأن يكونَ التَّشبيهُ بالخَلقِ الأوَّلِ شامِلًا للتجَرُّدِ مِن الثِّيابِ والنِّعالِ).

((تفسير ابن عاشور)) (95/1).

وقال الملَّا القاري: (قال الطِّيبي رحمه الله: فإنْ قُلتَ: سياقُ الآيةِ في إثباتِ الحَشرِ والنَّشرِ...

فكيف يُستشهَدُ بها للمعنى المذكورِ؟ قلتُ: دَلَّ سِياقُ الآيةِ وعِبارتُها على إثباتِ الحَشرِ، وإشارتُها على المعنى المرادِ مِن الحديثِ؛ فهو من بابِ الإدماجِ.

قُلتُ: الظَّاهِرُ أنَّ الآيةَ بعبارتِها تدُلُّ على المعنيَينِ وإن كان سياقُ الآيةِ مُختصًّا لأحدِهما؛ فإنَّ العِبرةَ لعُمومِ اللَّفظِ لا بخُصوصِ السَّبَبِ).

((مرقاة المفاتيح)) (3514/8).

ويُنظر: ((شرح المشكاة)) للطيبي (3498/11).

وقال البِقاعي: (كَمَا أي: مِثلَ ما بَدَأْنَا أي: بما عُلِمَ لنا من العَظَمةِ أَوَّلَ خَلْقٍ أي: تقديرَ أيِّ تقديرٍ كان؛ نَكَّره لِيُفيدَ التَّفصيلَ واحِدًا واحِدًا، بمعنى: أنَّ كُلَّ خَلقٍ جَلَّ أو قَلَّ سواءٌ في هذا الحُكمِ، وهو أنَّا نُعِيدُهُ أي: بتلك العَظَمةِ بعَينِها، غيرَ ناسِين له ولا غافِلِينَ ولا عاجِزِينَ عنه، فما كان مُتضامَّ الأجزاءِ فمدَدْناه نضُمُّه بعد امتدادِه، وما كان مَيتًا فأحيَيناه نُميتُه بعد حياتِه، وما كان حيًّا فأمَتْناه نُحييه بعد مَوتِه، ونعيدُ منهم مِن الترابِ مَن بدَأْناه منه.

والحاصِلُ أنَّ مَن أوجدَ شَيئًا لا يَبعُدُ عليه التصَرُّفُ فيه كيفما كان.

روى البخاري في التفسيرِ عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما قال: «خطَبَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: إنَّكم محشورونَ إلى الله عُراةً غُرْلًا كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ الآيةَ»).

((نظم الدرر)) للبقاعي (488/12).

قال ابنُ عطية (٦/ ٢٠٦ – ٢٠٧): «وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: أن يكون خبرًا عن البعث، أي: كما اخترعنا الخلق أولًا على غير مثال كذلك نُنشِئُهم تارةً أخرى فنبعثهم مِن القبور.

والثاني: أن يكون خبرًا عن أنّ كل شخص يُبعَث يوم القيامة على هيئته التي خرج بها إلى الدنيا».

كما قال تعالى: وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ [الأنعام: 94].

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبِيِّ – ﷺ – قال: ((إنَّكم محشورون حُفاةً عُراةً غُرْلًا،[158] ثمَّ قرأ: كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ)).[159]

وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ.

أي: وَعَدْناكم ذلك وَعدًا حَقًّا علينا أنْ نَفِيَ به، فمِن شأنِنا أنَّا نفعلُ ما نريدُ، وسنفعلُ ما وعَدْنا به لا محالةَ.

ثم قال مُقوّيًا القول الثاني بالسُّـنَّة: «ويؤيد هذا التأويل أنّ رسـول الله – ﷺ – قال: «يحشـر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلًا، ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾»».

(158) غُرْلًا: أي: غيرَ مختونين.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (193/17).

(159) رواه البخاري (3349) واللفظ له، ومسلم (2860).

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (105).

أي: ولقَدْ كَتَبْنا في جميعِ الكُتُبِ المَنَزَّلةِ مِن السماءِ[160] بعدَ اللوحِ المحفوظِ الذي كتَبَ اللهُ فيه كلَّ ما هو كائنٌ[161] أنَّ الأرضَ[162] يَرِثُها عبادِيَ[163] العامِلونَ بطاعَتِي، الذين قاموا بالمأموراتِ، واجتَنَبوا المَنهيَّاتِ.

---

(160) ممن اختار القولَ المذكورَ، وهو أنَّ المرادَ بالزبورِ: جميعُ الكُتُبِ المَنَزَّلةِ من السَّـــماءِ، ولا تختَصُّ بزَبورِ داودَ وحْدَه: ابنُ جريرٍ، والرسعني -ونسَبه لأكثرِ المفسِّرينَ-، وابنُ القيم، والعُليمي، والسعدي، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (434/16)، ((تفسير الرسعني)) (681/4)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: 39)، ((تفسير العليمي)) (395/4)، ((تفسير السعدي)) (ص: 531)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (249/4).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ، وابنُ زيدٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (432/16)، ((تفسير ابن الجوزي)) (217/3).

وقيل: المرادُ به: زَبورُ داود.

وممَّن قال بذلك: ابنُ جزي، وأبو حيان، والبقاعي، والقاسمي، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (30/2)، ((تفسير أبي حيان)) (472/7)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (490/12)، ((تفسير القاسمي)) (226/7)، ((تفسير ابن عاشور)) (162/17).

وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: عامرٌ الشعبي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (433/16).

قال ابنُ جُزي: (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ في الزَّبورِ هنا قولان؛ أحدُهما: أنَّه كِتابُ داودَ، والذِّكرُ هنا على هذا: التَّوراةُ التي أنزل اللهُ على موسى، وما في الزَّبورِ مِن ذِكرِ الله تعالى.

والقَولُ الثَّاني: أنَّ الزَّبورَ جِنسُ الكُتُبِ التي أنزلها اللهُ على جميع الأنبياء، والذِّكرُ على هذا: هو اللَّوحُ المحفوظُ، أي: كتَبَ اللهُ هذا في الكتابِ الذي أُفرِدَ له بعدما كتَبَه في اللَّوحِ المحفوظِ، حتى قضى الأمورَ كُلَّها.

والأوَّلُ أرجَحُ؛ لأنَّ إطلاقَ الزَّبورِ على كِتابِ داودَ أظهَرُ وأكثَرُ اســـتِعمالًا، ولأنَّ الزَّبورَ مُفرَدٌ؛ فدَلالتُه على الواحِدِ أرجَحُ مِن دلالتِه على الجمعِ، ولأنَّ النَّصَّ قد ورد في زبورِ داودَ بأنَّ الأرضَ يَرِثُها الصَّالحونَ).

((تفسير ابن جزي)) (30/2).

وقال الشوكاني: (الزَّبْرُ في الأصلِ: الكَتْبُ، يقال زَبَرْتُ: أي: كَتَبْتُ، وعلى هذا يَصِحُّ إطلاقُ الزَّبورِ على التَّوراةِ والإنجيلِ، وعلى كتابِ داودَ المسمَّى بالزَّبورِ).

((تفسير الشوكاني)) (508/3).

اختلف السلف في الزبور والذكر الذين أرادهما الله، على أقوال: الأول: الزبور: جميع الكتب الذي أنزلها الله على رسله.

والذكر: أم الكتاب التي عنده في السماء.

الثاني: عُني بالزبور: الكتب التي أُنزلت على الرسل بعد موسى.

والذكر: التوراة.

الثالث: عُني بالزبور: زبور داود.

والذكر: توراة موسى.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٦/ ٤٣٤ بتصرف) مستندًا إلى اللغة القول الأول، فقال: «وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب في ذلك أنّ معناه: ولقد كتبنا في الكتب مِن بعد أم الكتاب الذي كتب الله كل ما هو كائن فيه قبل خلق السماوات والأرض.

وذلك أنّ الزبور هو الكتاب، يُقال منه: زبرت الكتاب وذبرته: إذا كتبته، وأنّ كل كتاب أنزله الله إلى نبي من أنبيائه فهو ذِكْر.

فإذ كان ذلك كذلك فإنّ في إدخاله الألف واللام في» الذكر «الدلالةَ البينةَ أنّه مَعْنِيٌّ به ذكرٌ بعينه معلوم عند المخاطبين بالآية، ولو كان ذلك غير أم الكتاب التي ذكرنا لم تكن التوراة بأولى مِن أن تكون المعنية بذلك من صحف إبراهيم، فقد كانت قبل زبور داود».

(161) ممن اختار أنَّ المرادَ بالذكرِ: اللَّوحُ المحفوظُ، على معنى: كَتَبْنا ذلك في اللَّوحِ المحفوظِ: ابنُ جريرٍ، وابنُ تيميَّة، وابنُ القيمِ، والعُليمي، والسعدي، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (434/16)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (211/18)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: 39)، ((تفسير العليمي)) (395/4)، ((تفسير السعدي)) (ص: 531)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (249/4).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ، وابنُ زيد.

وهو معنى ما جاء عن ابنِ عباسٍ في روايةٍ عنه.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (432/16)، ((تفسير ابن الجوزي)) (217/3).

وقيل: الذِّكرُ هو التوراة.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (217/3).

وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: ابنُ عبَّاس في روايةٍ عنه، وعامرٌ الشعبيُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (433/16).

(162) قيل: المرادُ بالأرضِ هنا: الجنةُ.

وممن قال بذلك: ابنُ جرير، والبغوي، والقرطبي، والخازن، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (434/16)، ((تفسير البغوي)) (320/3)، ((تفسير القرطبي)) (349/11)، ((تفسير الخازن)) (246/3)، ((تفسير السعدي)) (ص: 531)، وهذا القولُ نسَبه الرسعني للجمهورِ.

يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (681/4).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبيرٍ، وأبو العاليةِ، ومجاهدٌ، وابنُ زيدٍ، والشعبيُّ، وأبو صالحٍ، والسُّدِّيُّ، والربيعُ بنُ أنسٍ، والثوريُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (435/16)، ((تفسير ابن كثير)) (385/5).

وقيل: المرادُ بها: أرضُ الدُّنيا.

وممن رجَّح ذلك: الزَّجَّاج، وابن جُزَي، وابن القيم.

يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (407/3)، ((تفسير ابن جزي)) (31/2)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: 39).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (217/3).

وممن جمع بين المعنيين، وذهب إلى عمومِ الأرضِ في الدنيا والآخرة: ابنُ كثير، والبِقَاعي.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (384/5)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (491/12).

قال البِقَاعي: (أَنَّ الْأَرْضَ أي: جنسَها الشاملَ لبقاعِ أرضِ الدُّنيا كلِّها، ولأرضِ الحشرِ والجنةِ وغيرِ ذلك مما يعلمُه الله).

((نظم الدرر)) (491/12).

وقيل: المراد بها: الأرضُ المقَدَّسة.

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ السائب.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (217/3).

(163) قيل: المرادُ بهم: أمَّةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى الله عليه وسلَّم.

وممن قال بذلك: ابن جزي، والخازن، وابنُ القيم، والعُليمي.

يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (31/2)، ((تفسير الخازن)) (246/3)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: 39)، ((تفسير العليمي)) (395/4).

ونسَب القرطبيُّ هذا القولَ إلى أكثرِ المفَسِّرينَ.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (349/11).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (437/16)، ((تفسير ابن الجوزي)) (218/3).

قال ابن جزي: (أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ الأرضُ هنا على الإطلاقِ في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها... والعبادُ الصالحونَ: أمَّةُ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم، ففي الآيةِ ثناءٌ عليهم، وإخبارٌ بظهورِ غيبٍ مِصداقُه في الوجودِ؛ إذ فتح الله لهذه الأمةِ مشارقَ الأرضِ ومغاربَها).

((تفسير ابن جزي)) (31/2).

وقيل: المرادُ بهم : بنو إسرائيلَ.

يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (682/4).

قال البيضاوي: (يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ يعني عامَّةَ المؤمنين أو الذين كانوا يُستضعَفون مشارقَ الأرضِ ومغاربَها، أو أمَّةَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم).

كما قال تعالى: إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ [الأعراف: 128].

وقال سُبحانه: أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [المؤمنون: 10، 11].

وقال عزَّ وجلَّ: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ [النور: 55– 56].

وقال تبارك وتعالى: وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ [الزمر: 74].

وقال سُبحانه وتعالى: وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [الزخرف: 72].

((تفسير البيضاوي)) (62/4).

قال السعدي: (يحتملُ أنَّ المرادَ: الاستخلافُ في الأرضِ، وأنَّ الصالحين يمكِّنُ اللهُ لهم في الأرضِ، ويُولِّيهم عليها؛ كقولِه تعالى: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ الآية).

((تفسير السعدي)) (ص: 531).

وعن ثَوبانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((إنَّ اللهَ زَوى[164] ليَ الأرضَ، فرأيتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وإنَّ أُمَّتي سيَبلُغُ مُلكُها ما زُوِيَ لي مِنها)).[165]

---

(164) زَوَى: أي: جَمَعَ.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (13/18).

(165) رواه مسلم (2889).

سورةُ الأنْبياءِ

الآيات (106–112)

إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (106) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (107) قُلْ إِنَّمَا
يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (108) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى
سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ (109) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا
تَكْتُمُونَ (110) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (111) قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ
وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (112)

غريب الكلمات:

لَبَلَاغًا: أي: لكفايةً، يقال: في هذا الشيءِ بلاغٌ وبُلْغةٌ وتبلُّغٌ، أي: كفايةٌ، والبُلوغُ والبلاغُ: الانتهاءُ إلى أقصَى المقصدِ والمنتهَى، وربَّما يُعبَّرُ به عن المشارفةِ عليه، وإن لم ينتهِ إليه، وأصلُ (بلغ): هو الوصولُ إلى الشَّيءِ.

عَلَى سَوَاءٍ: أي: على استواءٍ فِي العِلمِ مِنكَ ومِنهم؛ فلَا يَدَّعِي أحدٌ منهم أنَّه لم يبلُغْه الإنذارُ، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ واعتدالٍ بينَ شَيئينِ.

آَذَنْتُكُمْ: أي: أعلَمْتُكم وأنذَرْتُكم، وأصلُ (أذن): يدُلُّ على العِلمِ والإعلامِ.

تَصِفُونَ: أي: تكذِبونَ وتقولونَ، والوصْفُ: ذِكْرُ الشَّيءِ بحِلْيَتِه ونعْتِه، وأصْلُ (وصف): تحْليةُ الشَّيءِ.

تفسير الآيات:

إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (106).

أي: إنَّ في هذا القرآنِ الذي أنزَلْناه على نبيِّنا محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَكفايةً؛ يَتبلَّغونَ به في الوصولِ إلى بُغْيتَهم مِن خيرِ الدُّنيا والآخرةِ[166] لِقَومٍ دَيدَنُهم وشَأنُهم القيامُ بعِبادةِ اللهِ بما شَرَعَ.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (107).

---

(166) ممن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: لَبَلَاغًا الكفايةُ، واقتَصر عليها: الرسعني، والعليمي، والشوكاني، والقاسمي.

يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (683/4)، ((تفسير العليمي)) (395/4)، ((تفسير الشوكاني)) (508/3)، ((تفسير القاسمي)) (226/7).

وفسَّر الواحدي وابنُ الجوزي البلاغَ بأنَّه الكفايةُ، لكنَّهما قالا: (والمعنى: أنَّ مَن اتَّبعَ القرآنَ وعمِل به، كان القرآنُ بلاغَه إلى الجنَّةِ).

يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (254/3)، ((تفسير ابن الجوزي)) (218/3).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرسعني)) (684/4).

وممن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: لَبَلَاغًا أي: إلى رِضوانِ الله، أي: سببًا يبلغُهم إلى رِضوانِه، ويتبلَّغون به في الوصولِ إلى دارِ كرامتِه، وإلى ما يرجونَ مِن الثوابِ.

من اختار ذلك في الجملةِ: مقاتِلُ بنُ سليمان، وابنُ جريرٍ، والسمرقندي، والسمعاني، والبغوي، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (97/3)، ((تفسير ابن جرير)) (437/16)، ((تفسير السمرقندي)) (445/2)، ((تفسير السمعاني)) (413/3)، ((تفسير البغوي)) (320/3)، ((تفسير السعدي)) (ص: 532).

وممن جمَع بينَ القولينِ السابقينِ، فاختار في الجملةِ أنَّ المرادَ بقولِه: لَبَلَاغًا أي: أنَّ فيه الكفايةَ للعابدينَ، وما يبلغونَ به بُغيتَهم مِن خيرِ الدُّنيا والآخرةِ: الرازي، والنسفي، وأبو حيان، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير الرازي)) (192/22)، ((تفسير النسفي)) (423/2)، ((تفسير أبي حيان)) (473/7)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (250/4).

أي: وما أرسَلْناك –يا مُحمَّدُ– إلَّا رَحمةً لِجميعِ الخَلقِ.(167)

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قيل: يا رَسولَ اللهِ، ادْعُ على المُشرِكينَ، قال: إنِّي لم أُبعَثْ لعَّانًا، وإنما بُعِثْتُ رَحمةً)).(168)

قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (108).

---

(167) قال ابن جرير: (أولى القولينِ في ذلك بالصوابِ القولُ الذي رُوي عن ابنِ عباسٍ، وهو أنَّ الله أرسَل نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم رحمةً لجميعِ العالَمِ؛ مؤمنِهم، وكافرِهم).

((تفسير ابن جرير)) (441/16).

وقال مقاتلُ بنُ سليمان: (رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ يعني: الجنَّ والإنسَ).

((تفسير مقاتل بن سليمان)) (97/3).

وقال ابنُ جُزي: (المعنى...: أنَّ اللهَ رَحِمَ العالَمينَ بإرسالِ سَيدِنا محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم؛ لأنَّه جاءهم بالسَّعادةِ الكبرى، والنَّجاةِ مِن الشَّقاوة العظمى، ونالوا على يديه الخيراتِ الكثيرةَ في الآخرةِ والأولى، وعَلَّمَهم بعد الجَهالةِ، وهداهم بعد الضَّلالةِ).

((تفسير ابن جزي)) (31/2).

قال ابنُ عاشور: (وتفصيلُ ذلك يظهَرُ في مَظهَرينِ: الأوَّلُ: تَخَلُّقُ نَفْسِه الزكيَّةِ بخُلُقِ الرَّحمةِ، والثاني: إحاطةُ الرَّحمةِ بتصاريفِ شَريعتِه).

((تفسير ابن عاشور)) (166/17).

في قوله: ﴿رحمة للعالمين﴾ قولان: أحدهما: أنه عمَّ العالمين، وهو يريد مَن آمن به فقط.

وثانيهما: أنّ اللفظ عام، ورحمته للكافرين أنّ الله رفع عن الأمم العذاب الذي أصاب به الأمم قبلهم.

وذكر ابنُ عطية (٤/ ٢٠٨) القولين، ثم علّق بقوله: «ويحتمل الكلام أن يكون معناه: ﴿وما أرسلناك للعالمين إلا رحمة﴾، أي: هو رحمة في نفسه وهدىً، أخذ به مَن أخذ، وأعرض عنه مَن أعرض».

(168) رواه مسلم (2599).

أي: قُلْ –يا مُحَمَّدُ– للمُشرِكِينَ: إنَّما يُوحي اللهُ إليَّ أنَّما مَعبودُكم مَعبودٌ واحِدٌ لا شَريكَ له في العِبادةِ، فهل أنتم مُستَسلِمونَ لِتَوحيدِ اللهِ، مُنقادونَ لِطاعتِه وعِبادتِه وَحْدَه بعدَ هذا البَيانِ؟

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ (109).

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ.

أي: فإنْ أعرَضَ النَّاسُ عن الإسلامِ، فقُلْ لهم –يا مُحَمَّدُ: أعلَمْتُكم ببَراءتي منكم وبراءتِكم مِنِّي، وأنَّه لا صُلحَ بيننا، ولا سِلْمَ، فاستَوَينا جميعًا في العِلمِ بذلك.

وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ.

أي: وما أدري أقريبٌ زَمَنُ وُقوعِ ما وعَدَكم اللهُ به من العَذابِ، أم هو بَعيدٌ؟

إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (110).

أي: لكنَّ عَذابَكم واقعٌ لا مَحالةَ؛ لأنَّ اللهَ يَعلَمُ ما يَجهَرُ به عِبادُه مِن أقوالِهم، ويَعلَمُ ما تُخفونَه –أيُّها المُشرِكونَ– وسيُجازيكم على ذلك عاجِلًا أو آجِلًا.

كما قال تعالى: وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ [المائدة: 99].

وقال سُبحانَه: وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى [طه: 7].

وقال تبارك وتعالى: وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ [الملك: 13].

وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (111).

أي: قُلْ –يا مُحَمَّدُ– لهم: فإنْ تأخَّرَ عذابُكم، فما أدري سَبَبَ ذلك وحِكمَتَه، لكنْ لعَلَّه فِتنةٌ لكم، فتزدادُ سَيِّئاتُكم، وتتمَتَّعونَ قَليلًا في حياتِكم إلى وَقتٍ مُعَيَّنٍ، ثمَّ يأتيكم العَذابُ.

كما قال تعالى: وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ [آل عمران: 178].

وقال سُبحانَه: مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ [آل عمران: 197].

قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (112).

قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ.

أي: قال مُحَمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ داعيًا رَبَّه: يا رَبِّ، افعَلْ ما تنصُرُ به عبادَك، وتَخذُلُ به أعداءَك..

كما حكى اللهُ تعالى عن شُعَيبٍ عليه السَّلامُ قولَه: رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ [الأعراف: 89].

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قراءةُ قَالَ بالمُضِيّ، على أنَّه خَبَرٌ مِن الله تعالى عن نبيّه - ﷺ - أنَّه قال: رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ.[169]

2- قِراءةُ قُلْ على أنَّه أمرٌ مِن اللهِ تعالى لنبيّه - ﷺ - أن يسألَه الحُكمَ بالحَقّ.[170]

وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ.

أي: وربُّنا المتَّصِفُ بالرَّحمةِ الواسِعةِ هو وَحْدَه الذي نَطلُبُ منه العَونَ عليكم -أيُّها المُشرِكونَ- على ما تَفتَرونَه عليه وعلى رَسولِه مِن الوَصفِ الباطِلِ.

كما قال تعالى حكايةً عن يَعقوبَ عليه السَّلامُ: وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ [يوسف: 18].

---

(169) قرأ بها حفص عن عاصم.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (325/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (173/2)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 471).

(170) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (325/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (173/2)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 471).

تمَّ بحمدِ الله تعالى المجلَّدُ السابعَ عَشَرَ

ويَليه المجلَّدُ الثامنَ عَشَرَ، وأوَّله: تفسيرُ سورةِ الحَجِّ

الفهرس

" نُسْخَةٌ إِلِكْتِرُونِيَّةٌ، حُقُوقُهَا مَحْفُوظَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ "

نسخة
إلكترونية

المغني في التفسير

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا